



کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

آثار الإمام ابن قيم الجوزية ومآل حقه من أعمال

(٤)

مجموع الرسائل

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١)

١. الرسالة السبوكية

تأليف: محمد بن أيوب

إشراف

بكر بن عبد الله بن أيوب

تتمويل

مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم الفوائد

ونشر

نسخ البعث



مطبوعات المجمع

أثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال
(٤)

السُّنَنُ التَّيْبُوكِيَّةُ

تأليف
الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١)

تحقيق
محمد عزيز شمس

إشراف
بكر بن عبد الله بن زيد

تقويم
مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم القوائد
المنشور في الرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فهذه الرسالة التي بين أيدينا من مؤلفات الإمام العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله، وقد كتبها في المحرم سنة ٧٣٣ بتبوك، وأرسلها إلى أصحابه في بلاد الشام، فسُميت بـ«الرسالة التبوكية». فسر فيها المؤلف قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، وذكر أن من أعظم التعاون على البر والتقوى التعاون على سفر الهجرة إلى الله ورسوله باليد واللسان والقلب، مساعدة ونصيحة وتعليماً وإرشاداً. وبين أن زاد هذا السفر العلم الموروث عن النبي ﷺ، وطريقه بذل الجهد واستفراغ الوسع، ومركبه صدق اللجا إلى الله والانقطاع إليه بالكلية وتحقيق الافتقار إليه من كل وجه. ورأس مال الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكير والتدبر في آيات القرآن، بحيث يستولي على الفكر ويشغل القلب، وتصير معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه.

ثم استطرد إلى بيان كيفية تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه، ففسر الآيات ٢٤ - ٣٠ من سورة الذاريات، واستنبط أسرارها وأثار كنوزها وأفاض في بيانها، ليُجعل ذلك نموذجاً يُحتذى في تدبر القرآن.

ثم ذكر المؤلف أن من أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين هم في الناس أموات، فإنهم يقطعون عليه طريقه. وعليه أن يكون واقفاً عند قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، متدبراً لما تضمنه من حسن المعاشرة مع الخلق، وأداء حق الله فيهم، والسلامة من شرهم.

وفي أثناء الرسالة تحقيقات مشورة في الكلام على الآيات والأحاديث، وبيان حقيقة هذه الهجرة ومقتضياتها وآثارها وانقسام الناس إزاءها، تُشوق القارئ إلى الاستفادة منها، وسلوك الطريق القويم في سفره إلى الله، الذي هو غاية كل عبد منيب.

✽ طبعات هذه الرسالة :

نظراً إلى أهمية هذه الرسالة وما تضمنته من معاني جلية طُبعت عدة مرات بعناوين مختلفة، أولها بعنوان «الرسالة التبوكية» بمراجعة واهتمام الشيخ عبدالظاهر أبي السمع إمام وخطيب الحرم المكي الشريف، بالمطبعة السلفية بمكة المكرمة سنة ١٣٤٧. وطُبعت أيضاً بعنوان: «زاد المهاجر إلى ربه» وبالعنوان: «تحفة الأحباب في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَعَلَّوْا عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوُا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾»، وتوالت طبعاتها بالاعتماد على الطبعة الأولى دون الرجوع إلى أصولها الخطية، وكثر فيها التصحيف والتحريف والسقط، حتى أصبح النص غامضاً

في مواضع كثيرة يَقِفُ القارىء فيها حيران لا يهتدي إلى الصواب .

وقد صدرت أخيراً طبعة جديدة لها بتحقيق الشيخ سليم الهلالي عن مكتبة الخراز في جدة ودار ابن حزم في بيروت سنة ١٤١٩ ، اعتمد في إخراجها على نسخة برلين (الآتي وصفها) والطبعة الأولى التي سبق ذكرها، وامتدرك في هذه الطبعة الفصل الأخير الذي خلت منه الطبعات السابقة، واستفاد بعض التصحيحات من المخطوطة التي رجع إليها، ولكنه جرباً على عادة كثير من المشتغلين بكتب التراث وجهه جُلَّ اهتمامه إلى تخريج الأحاديث والآثار وترجمة الأعلام ونقل كلام المؤلف من كتبه الأخرى في صفحات، حتى خرج الكتاب مع ترجمة المؤلف والتعليقات والفهارس في أكثر من ثلاثمائة صفحة، وهو في المخطوطة المشار إليها ١٣ ورقة فقط . أما النص فلم يتمكن من تحريره وضبطه على وجه الصواب في مواضع كثيرة، ويكفي القارىء أن يقارن بين طبعته وهذه الطبعة في الفصل الأخير وفي بقية الفصول، ليدرك الفرق بين الطبعتين . فلاني لا أحب الخوض في ذكر الأخطاء والتحريفات وسرد النماذج منها .

* الأصول المعتمدة في هذه الطبعة :

توجد من هذه الرسالة عشر نسخ خطية على ما أعلم، وقد تمكنت من الحصول على خمس منها، وفيما يلي وصفها :

- (١) نسخة مكتبة الدولة في برلين برقم [٢٠٨٩] (الورقة ١٠٠ ب - ١١٣)، كتبت بخط نسخي، وليس عليها تاريخ النسخ واسم الناسخ،

ولعلها من مخطوطات القرن الحادي عشر. وهي نسخة تامة مقابلة على الأصل المنسوخ عنه، والخطأ فيها قليل، والسقط نادر.

(٢) نسخة جامعة أم القرى بمكة المكرمة برقم [٢/١٤٨٩] (الورقة ١٥ ب - ١٣٧)، كتبت سنة ١٢٦٩، وهي بخط نسخي جيد، ولكنها كثيرة الأخطاء والتحريفات، وينقصها الفصل الأخير.

(٣) نسخة مكتبة الملك فهد الوطنية [رقم ٢٢ مجموعة الدلم] في عشرين ورقة، كتبت سنة ١٢٨٤، بخط نسخي، وهي توافق النسخة السابقة في التحريف والسقط، وينقصها أيضاً الفصل الأخير.

(٤) نسخة المكتبة السعودية بالرياض برقم [٨٦/٤٥]، في ٢٢ ورقة، كتبت في القرن الثالث عشر تقديراً، وفي آخرها: «بلغ مقابلة وتصحيحاً بحسب الطاقة والإمكان على أصل ليس بالقوي». وهي مثل النسختين السابقتين.

(٥) نسخة مكتبة الملك فهد الوطنية برقم [٣١٤٧٤٩] من مجموعة شقراء، في ١٦ ورقة، كتبت في شعبان سنة ١٣٥٦، وناسخها محمد بن إبراهيم بن عبدالعزيز بن عبدالكريم بن محمد بن عبدالله، وقد نساخها عن نسخة كتبت سنة ١٣١٦. وعنوان هذه النسخة: «رحلة ابن القيم إلى تبوك»، وهي مثل النسخ الثلاث السابقة.

وبعد دراسة هذه النسخ ظهر لي أن نسخة برلين أصح النسخ وأكملها، والنسخ الأربع المذكورة ترجع إلى أصل واحد، فهي تتفق في التحريف والسقط والاضطراب في أكثر المواضع.

* منهج التحقيق :

اتخذتُ نسخة برلين أصلاً لكونها أقدم النسخ وأصحتها، وهي تنفرد بزيادة الفصل الأخير الذي لم يرد في غيرها، وقابلتها بالنسخ الأخرى، ولم أعدل عن الأصل إلا إذا كان ما فيه خطأ ظاهراً أو قراءةً مرجوحةً، واستدركتُ السقط بوضعه بين معكوفتين. وقد كنتُ أحصيتُ جميع الفروق والتحريفات في بداية الأمر، ثم صرفتُ النظر عنها، فإن أكثرها تحريفات واضحة من النسخ، ولذا اكتفيتُ بالإشارة إلى الفروق التي لها وجه في العبارة، وأشرتُ إلى السقط في الأصل وبقية النسخ ليكون القارئ على بينة. وقد رمزتُ لنسخة برلين بالأصل، ولنسخة أم القرى بـ(ق)، ولنسخة الدلم بـ(د)، ولنسخة المكتبة السعودية بالرياض بـ(ر)، ولنسخة شقراء بـ(ش).

وراجعت أيضاً الطبعة الأولى، فوجدتها كثيرة التحريف والسقط بعد مقابلتها على النسخ الخطية، ولكنها تختلف عنها في مواضع كثيرة، وفيها بعض الزيادات المهمة على الأصل، واختصاراً في العبارة وخاصة في الآيات. وقد أشرتُ إليها بـ(ط). ولعل الأصل الذي طبعت عنها هذه الطبعة نسخة دار الكتب المصرية [١٣م مجاميع] (الورقة ١٣٩ - ١٤٨) كما ورد ذكرها في فهرس الخديوية (٥١٩/٧) والفهرس الثاني لدار الكتب (٣١١/١). وقد حاولتُ الحصول على هذه النسخة مراراً، فلم أفلح، وقيل لي: إنها لا توجد الآن.

بعد مقابلة الأصل بالمخطوطات والمطبوعة حرّرتُ النصّ،
وقمتُ بضبطه عند الضرورة، ثم علّقتُ عليه بما يؤثّقه ويُرّيل
الإشكالَ عنه، ولم أُطِل في هذه التعليقات، فالموضوع في عني
عنها، والقارئ الذي يقرأ النصّ ويفهمه بسهولة ليس بحاجة إلى
الشرح.

وفي الختام أحمد الله على توفيقه، وأسأله الهدى والسداد، إنه
نعم المولى ونعم النصير.

كتبه

محمد عزيز شمس

نماذج من النسخ الخطية

[illegible]

واحد

أول نسخة (الأصل)

يلعب لعبه ذلك فا ضرب الرجل سيفه فضرب عنقه فقال ان كان صادقا
 فليحيي نفسه فامر الوليد وبنار صاحب السجن بسجنه انتهى
 بل اعجب من هذا ما اخرجهم انا فقط ابو بكر البهقي باسناده في قصة طويلة
 وفيها ان امرأة تغلبت النحر من الملكين ببابل هاروت وماروت
 وانما اخذت قحما فقالت له بعد ان القته في الارض اطلع فطلع ثم
 قالت اعمل قحلا ثم فركته ثم قالت ايسس فيسس ثم قالت لداهن
 قال لهن ثم قالت له احببنا فاحببنا وكانت لا تزيد شيئا الا كان
 احوال الشيطانية لا تقهره وكفى بما ياتي به الدجال والمعار
 اتباع الكتاب والسنة وبما لفتها انتهى ما اوردهنا ه ه
 والحمد لله اولوا اخره وظاهر ارباطنا

وصلى الله على محمد النبي الاخي وعلى اله

ومحبته وسلم والحمد لله رب

العالمين والاهل وال

آل ابي طالب

المطهر

بسم الله الرحمن الرحيم

في كتاب الشيخ العلامة محمد ابراهيم بكر المعروف بابن قيم الجوزية رضي الله
 عنه كتابه الذي كتبه في سيره من توكيد ثامن المحرم سنة
 ثلاث وثلاثين وسبع مائة ثم قال بعد كلام له سبق وبعده
 حمد الله الذي هو لها اهلا والصلوة على خاتم الانبياء ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم

والحمد لله رب العالمين

رسول الله ﷺ قال اسأؤا في حقك فتقابل ذلك في عفوكم عنهم دون اسأؤا
 في حقّي فاسألني اغفر لهم واستجب قلوبهم واستخرج ما عندهم
 من الرأي بمشاورتهم فان ذلك احرى استجواب طاعتهم فاذا عزمت
 على امر فالاستشارة بعد ذلك بل توكل وامض لما عزمت عليه من
 امرك فان الله يحب المتوكلين **فصل** في امثاله من الاخلاق
 التي ادب الله بها رسوله وقاد فيها وانك لعلى خلق عظيم قالت
 عائشة كان خلقه القرآن وهذا لا يتم الا بثلاثة اشياء احدها
 ان يكون العبد طيبا فاما ان كانت الطبيعة جافية غليظة يابسة
 صر عليها من اوله ذلك علما واردة وعلا بخلاف الطبيعة اللينة
 السهلة القياد فانها مستعبدة لما يريد الحرث والنيل **الثاني**
 ان تكون النفس قوية غالبة قاهرة له اعنى البطالة والي والهي
 فان هذه اعداء الكمال فان لم تقوى النفس منازلتها يميز به
 بين الشحم والورم والزجاجة والجوهر فاذا اجتمعت فيه
 هذه الخصال وساعده التوفيق فيهموس القسم الذين سبقت
 لهم من ربهم المحسن وتمت لهم العنايته والله اعلم

وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه

وسلم تسليما كثيرا والحمد لله

رب العالمين



آخر نسخة (ق)

ما ابتدأ خلق القرن وهذا يتم ابتداءً من الأشياء كلها : يكون عدد
 حيداً وأما هـ ت طبيعتها غليظة بأربعة عشر على ما من ذلك
 علماً ورؤية وعلا خدش الطبيعة اللينة السلسة التي تفتتتها مستعبدة
 ما يرى الحشوش نسل الشايف ان تكون النفس قوية غالبة قاهرة
 له حتى لا يطفئ من الغيظ الذي يكون له من هذه عند الماء فانه يتقوى
 النفس منازة ويميز بين النعم والورم والزجاجة والجوهر فانه
 اجتمعت فيه سنة اتصال وساعة التعريف فهو من التسميم
 ابدى سبقتا من ركبته منى وتمت له العناية والله اعلم
 وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

طيات شيا حرة شمس السنة

٢٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال الشيخ العلامة محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية رضي الله عنه
 ورضاه في كتابه الذي كتبه في صيرة من شواكنا من الحرم سنة ثلاث
 وثلاثين وسبع مائة ثم قال بعد كلام يسبق ويعمل حمد الله الذي
 اهلا والصلوة على خاتم الانبياء ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم فان امير
 سبحانه يقول في كتابه وتعالى ونوا على البر والتقوى ولا تقا ونوا على الاتم
 والعدوان والتقوا لادن الله شديد العقاب وقيل اشتملت هذه الآية
 على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم وفي بعضهم ببعض
 وفيما بينهم وبين ربهم فان كل عبدا لا يتفلسف من هاتين الحالتين وهذين
 الوجهين واجب بينه وبين الله وواجب بينه وبين الخلق فاحس
 ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والملازمة ونزول العجوة فالواجب
 عليه فيها ان يكون اجتماعهم ومحبة لهم تعاونا على مرضاة الله وطاعة
 التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه واسعادته الالهية وهي البر والتقوى
 اللذين هما جامع الخير كله واذا افرد كل واحد من الاسمان دخل شيء
 مسمى الاخر اما نعمنا ولعالم يومنا خير فغير نعمنا اظهر لان البر خير مسمى
 التقوى وكذلك التقوى اجزء مسمى البر وكل واحد لا يدخل في الاخر عند
 الاقتران لا يدل على انه لا يدخل فيه عند الاقتران ونظير هذا لفظ الايمان
 والاسلام والايمان والعمل الصالح والتقوى والمساكين والفقير والمعتكف
 والمنكر والنافع ونظام كثير وكثرة قاعدة جليدة من احاط بها
 زال عنه اشكالات كثيرة عده على طوائف كثيرة من الناس والناسك
 من هذا مثلا واحدا يستدل به على غيره وهو البر والتقوى فان حقيقة

هو ص

الدين

نقرا

البر

[illegible]

وَصَلَّى اسْمُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَحَجَّ
عَلَيْهِمْ سَلَامًا كَثِيرًا وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

آن مجد عیاضی کا

ماذا كنتم تفعلون وماذا اجبتم له عليه

[illegible]

الرسالة التبوكية

تأليف

الشيخ الامام العالم العلامة

١٤٠
٢٨٨

شمس الدين محمد بن أبي بكر
المروفي بن تميم الجوهري
رحمه الله آمين
بمراجعة واعتماد
مكتبة دار الكتب العلمية
ادارة مكتبة الحرم المكي الشريف
الرقم العام ٢٨٢
الرقم الخاص
تاريخ الترخيص

عن الأستاذ الشيخ عبد الظاهر أبي السبع
إمام ومفتي الحرم المكي الشريف

منيت بشرها للمرة الأولى

المطبعة الشافعية - ومكتبتها

وسمها : قسمة فصول ومصالح جديدة وشكلها
مكتبة المصنوعة - الجوار

١٣٤٧



مخطوطات المجمع

آثار الإمام ابن قيم الجوزية ومآل حقه من أعمال
(٤)

السيرة النبوية

تأليف
الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١)

تحقيق
محمد عزيز شمس

إشراف
بكر بن عبد الله بن زيد

مقروء
مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الزاحبي الخيرية

دار عالم الفوائد
الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[وبه نستعين وعليه نتوكل]^(١)

قال الشيخ [الإمام العالم العلامة محمد بن أبي بكر المعروف
بإمام قيم الجوزية]^(٢) - رضي الله عنه وأرضاه - في كتابه الذي ستره
من تبوك^(٣) ثامن المحرم سنة ثلاث وثلاثين وسبع مئة من الهجرة
السوية، بعد إرسال المنظومة التي أولها^(٤).

إذا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَإِنَّهَا

(١) من ط، د.

(٢) من ط والنسخ الأخرى

(٣) كما في الأصل وط وفي ق، د، ر «كتاب الذي كتبه في سيره» وفي
ش: «في رحلته إلى تبوك»

(٤) مطلع قصيدة طويلة للمؤلف، والشرط الثاني:

أَمَارَةُ تَسْلِيْمِي عَلَيْكُمْ فَسَلُّوْا

وقد نُشِرَتْ هذه الميمية لأول مرة بأهد سنة ١٣١٦ صغر مجموعة
سمى «أريج بصاعة في معتقد أهل السنة والجماعة» جمعها علي بن سليمان
آل يوسف

فصل (١)

وبعد حمد الله^(١) بمتخايمه التي هو لها أهل^(٢)، والصلاة والسلام^(٣) على حاتم أنبيائه ورسله^(٤) محمد ﷺ، فإن الله سبحانه يقول في كتابه ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٥)

وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم في^(٦) بعضهم بعضاً، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا يتعلك من^(٧) هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق.

فأم ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاوناً على مرصدة الله وطاعته، لتي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له^(٨) إلا بها، وهي

(١) «من بهجرة» . فصل «ساقط من ط وسائر النسخ» وفيه مكانه «ثم قال بعد كلام له سق»

(٢) ط: «أحمد الله» خطأ.

(٣) ق، د، ر، ش: «وبعد حمد الله الذي هو له أملاً»!

(٤) «ولسلام» ساقط من ق، د، ر، ش.

(٥) ط: «رسله وأبيائه»

(٦) سورة المائدة ٢.

(٧) «في» ساقطة من ط

(٨) «في بعض النسخ» . «عن»

(٩) «له» ساقطة من سائر النسخ.

«البرُّ والتقوى» اللذان^(١) هما جماعُ الدين^(٢) كله، وإذا أُفرد كلُّ واحدٍ من الاسمينِ دخلَ فيه المسمّى الآخر^(٣)، إمّا تضمُّناً وإمّا لزوماً، ودخوله فيه تضمُّناً أظهرُ، لأن البرَّ جزءُ مسمّى التقوى، وكذلك التقوى فيه^(٤) جزءُ مسمّى البرِّ، وكونُ أحدهما لا يدخلُ في الآخرِ عند الاقتراح لا يدلُّ على أنه لا يدخلُ فيه عند الانفراد^(٥)

وطبیرُ هذا لفظ «الإيمان والإسلام»، «والإيمان والعمل الصالح»، و«الفقير والمسكين»، و«الصوق والعصيان»، و«لمكر والمأحشة»^(٦)، و«بطائره كثيرة».

وهذه قاعدةٌ جليلةٌ، مَنْ أحاطَ بها رآل^(٧) عنه إشكالاتٌ كثيرةٌ أشكَلَتْ^(٨) على ضوائفَ كثيرةٍ من الناس ولذا ذكر من هذا مثلاً واحداً يُستدلُّ به على غيره، وهو «البرُّ والتقوى»

إن حقيقة البرِّ هو الكمالُ المطلوب^(٩) من الشيء، والمنافعُ التي فيه والحيرُ، كما يدلُّ عليه اشتقاقُ هذه اللفظةِ وتصاريقُها في الكلام.

(١) في الأصل وسائر النسخ «لدين» والتصويب من ط

(٢) في وبقية النسخ: «جماع الخير».

(٣) في ط وسائر النسخ «دخل في مسمى الآخر».

(٤) «فيه» ساقطة من سائر النسخ

(٥) ط: «انفراد الآخر».

(٦) د: «المأحشة»

(٧) ط: «زالت».

(٨) في سائر النسخ: «عدة».

(٩) «المطلوب» ساقطة من سائر النسخ

ومنه «البر» بالضم؛ لكثرة منافعه^(١) وخيره بالإضافة إلى سائر الحُوب.

ومنه رجلٌ نَارٌ، وبرٌّ، وكَرَامٌ بَرَّةٌ، والأبرار^(٢).

فالبرُّ كلمةٌ لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد، وفي مقابلته «الإثم» وفي حديث الثَّوَّاسِ بْنِ مَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرَأَيْتَ إِنْ قَالَ [لَهُ]^(٣) «جِئْتُ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ»^(٤)؛ فالإثم كلمةٌ جامعةٌ للشر^(٥) والعيوب التي يُدْمُ الْعَدُوُّ عَلَيْهَا^(٦).

فيدخل في مسمى البرِّ الإيمانُ وأجزاؤه الظاهرة والباطنة، ولا ريب أن التقوى جزءٌ هذا المعنى، وأكثر ما يُعْبَرُ بِالْبِرِّ عَنْ^(٧) بَرِّ الْقَلْبِ، وهو وجودُ طَعْمِ الْإِيمَانِ [فِيهِ]^(٨) وَحَلَاوَتِهِ، وما يلزم ذلك من طُمَأْنِينَتِهِ وَسَلَامَتِهِ وَاتِّسَاعِهِ وَقُوَّتِهِ وَفَرَحِهِ بِالْإِيمَانِ، فإن الإيمان

(١) في ط «منافعه» وفي سائر النسخ «منافعه كثيرة»

(٢) «الأبرار» سائطة من سائر النسخ.

(٣) زيادة من ط وسائر النسخ

(٤) أخرجه بهد اللفظ أحمد (٢٧٨ / ٤) والدارمي (٢٥٣٦) من حديث دبعة بن

معبد أم حديث ثَوَّاسِ بْنِ مَمْعَانَ، ففيه سألتُ رسولَ الله ﷺ عن البرِّ والإثم، فقال «البرُّ حسنُ الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلعَ عليه الناس». أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

(٥) ط. «للشُّرور»

(٦) في بعض النسخ «يُدْمُ بِهَا»

(٧) ط «يعبر عن» وسائر النسخ «يعبر عنه» بحذف «بالر»

(٨) زيادة من ط وسائر النسخ.

فرحة وحلاوة ولدادة^(١) في القلب، فمن لم يجدها فهو فاقد للإيمان^(٢) أو ناقصه، وهو من القسم الدين^(٣) قال الله عز وجل فيهم ﴿الْأَعْرَابُ أَمْأَأَلْ لَمْ يُؤْمِسُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٤)

فهؤلاء - على أصح القولين - مسلمون غير مفاقيين، وليسوا بمؤمنين^(٥)، إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم؛ فيباشرها حقيقة^(٦)

وقد جمع [الله] ^(٧) تعالى خصال البر في قوله ﴿لَيْسَ آتِرًا لِّقَوْلُوا وَحُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّى السَّبِيلِ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٨)

فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان به^(٩)، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس^(١٠) التي لا قوام للإيمان إلا بها.

(١) ط وسائر النسخ: «لذة».

(٢) ط: «فاقد الإيمان».

(٣) ط: «الدي».

(٤) سورة الحجرات: ١٤.

(٥) ر، ش: «مؤمنين».

(٦) ط «حقيقة».

(٧) من ط، في

(٨) سورة البقرة: ١٧٧.

(٩) ط «الله».

(١٠) ق، ر: «الحمسة». وسقطت من د.

وأنه^(١) الشرائع الظاهرة - من إقام^(٢) الصلاة، وإيتاء الزكاة،
والمفقات الواجبة.

وأنه^(٣) الأعمال القدسية^(٤) التي هي حقائقه^(٥)؛ من الصبر والوفاء
بالعهد.

فتسوّلت هذه الخصال جميع أقسام الدين: حقائقه وشرائعه،
والأعمال المتعلقة بالحوارج وبالقلب^(٦)، وأصول الإيمان الخمس
ثم أحبر سبحانه أن هذه^(٧) خصال التقوى بعينها، فقال: ﴿أُولَئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا
ونهيًا^(٨)، فيعمل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر، وتصديقًا بموعده^(٩)،
ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنهي، وخوفًا من وعيده
كما قال طلق بن حبيب: «إِذَا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ فَادْفَعُوهَا»^(١٠) بالتقوى،

(١) ط: «وأنها»

(٢) ط: «إقامة».

(٣) ط: «وأنها»

(٤) في سائر النسخ: «الصلحة».

(٥) في سائر النسخ: «حقائق».

(٦) ط وسائر النسخ: «والقلب».

(٧) ط «عن هذه أنها هي» سائر النسخ «هذه هي»

(٨) ط وسائر النسخ: «أو نهيا»

(٩) ط: «بوعده».

(١٠) ط: «فاطفوها».

قالوا وما التقوى؟ قال: «أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثوابَ الله، وأَنْ تتركَ معصيةَ الله على نورٍ من الله، تخاف عقابَ»^(١) الله.»^(٢)

وهذه^(٣) من أحسنِ ما قيل في حَدِّ التقوى^(٤)، فإنَّ كلَّ عملٍ لا بدَّ له من مبدأ وغاية، فلا يكون العملُ طاعةً وقُرْبَةً حتى يكون مصدرُهُ عن الإيمان، فيكون الباعثُ عليه هو الإيمان المحض، لا العادة ولا الهوى ولا طلبُ المَخْدَةِ والجاهِ وغير ذلك، بل لا بدَّ أن يكون مبدؤه محضَ الإيمان، وعاقبته ثوابُ الله تعالى، وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب.

و[لهذا]^(٥) كثيرًا ما يُقَرَّنُ بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا» و«مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا»^(٦)، ونظائره.

(١) ق، د: «عذاب»

(٢) أخرج هذا الأثر ابن المبارك في الرهد (ص ٤٧٣) وهمد في الرهد (١ / ٢٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٣ / ٦٤) والبيهقي في الرهد (رقم ٩٦٣) وغيرهم، وإسناده صحيح

(٣) ط: «وهذه».

(٤) قال الذهبي في السير (٤ / ٦٠١) تعميماً على هذا القول أدع وأوحر، فلا تقوى إلا بعمل، ولا عمل إلا بتروٍّ من العلم والاتع ولا ينفع ذلك إلا بالإحلاص لله لا يقال فلان تارك للمعاصي نور العقه، إذ المعاصي يفتقر احتسابها إلى معرفتها، ويكون الترك خوفاً من الله، لا ليُمدح تركها. فمن دأب على هذه لوصية فقد فاز

(٥) من ط وسائر النسخ.

(٦) قصتان من حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (١٩٠١) وموضع أخرى ومسلم (٧٦٠)

فقوله: «على نور من الله» إشارة إلى الأصل الأول، وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل، والسبب الناعث عليه.

وقوله: «ترجو ثواب الله» إشارة إلى الأصل الثاني، وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها يُوقَع^(١) العمل، ولها يُقْضَى به

ولا ريب أن هذا جامع^(٢) لجميع أصول الإيمان وفروعه، وأن البرّ داخل في هذا المسمى.

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ ولفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها؛ فإن البرّ مطلوب لذاته، إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه، كما تقدّم.

وأما التقوى فهي الطريق الموصلة^(٣) إلى البرّ، والوسيلة إليه، ولفظها يدّ على هذا؛ فإنها فعلى من وقى يقى، وكان أصلها وقوى، فقلّبوا الواو ناء، كما قالوا: ثرأت من الوراثه، وتجاه من الوجه، وتخمّة من الوحمة^(٤)، ونظائره^(٥)، فلفظها دالٌّ على أنها من الوقاية، فإنّ المتقي قد جعل^(٦) بينه وبين النار وقاية، فالوقاية من

(١) ط «وقع»

(٢) ط: «مسم»

(٣) ط. وسانر السخ «الموصل».

(٤) ط «الوحمة».

(٥) ط «نظائرها»

(٦) في بعض النسخ «يجعل»

باب دفع لصرور، والبرُّ من باب تحصيل النعم^(١)، فالتقوى كالحمية^(٢)،
والبرُّ كالعافية والصحة.

وهذا بابٌ شريفٌ يُتَمَعُّ به انتفاعٌ عظيمٌ^(٣) في فهم ألفاظ القرآن
ودلالته، ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله؛ فإنه هو العلم النافع،
وقد ذمَّ سبحانه^(٤) في كتابه من ليس له علمٌ بحدود ما أنزل^(٥) على
رسوله فإنَّ عدم العلم بذلك مستلزمٌ مفسدتين عظيمتين.

إحدهما^(٦): أن يدخل في مسمى اللفظ ما ليس منه؛ فيُحكم
له بحكم المراد من اللفظ؛ فيُسَوَّى^(٧) بين ما فرَّق الله بينهما.

والثانية: أن يخرج من مُسمَّاه^(٨) بعضُ أفرادهِ الداخلة تحتَه؛
فيُسَلَب عنه حكمه؛ فيفرَّق بين ما جمع الله بينهما.

والدَّكِيُّ القَطِيطُ يَنْقَطُنْ لأفراد هذه القاعدةِ وأمثليها^(٩)، فيرى أن

(١) «والبر... النعم» ساقطة من ط.

(٢) «كالحمية» ساقطة من ط. ووقع في سائر النسخ اضطراب بعد «بطائره» أفسد
المعنى.

(٣) ط: «انتفاعاً عظيماً».

(٤) ط: «الله تعالى».

(٥) ط: «أنزل الله».

(٦) في الأصل وبعض النسخ «أحدهما»، والمثبت من ط.

(٧) ط: «يساوي».

(٨) ط: «مسمى».

(٩) ط: «أمثاليها».

كثيراً من الاختلاف أو أكثره إنما نشأ عن^(١) هذا الموضع، وتفصيلُ هذا لا يَفِي به كتابٌ ضخْم.

ومن هذا لفظُ «الحمَر»؛ فإنه اسمٌ شاملٌ لكل مُسَكِر، فلا يجوز إخراجُ بعضِ المسكراتِ منه، ويُتَقَى عنها^(٢) حكمه.

وكذلك لفظُ «الميسر»، وإخراجُ بعضِ أنواعِ القمارِ منه

وكذلك لفظُ «النكاح»، وإدخالُ ما ليس سكاكاً في مسمّاه

وكذلك لفظُ «الربا»، وإخراجُ بعضِ أنواعه منه، وإدخالُ ما ليس ربياً فيه.

وكذلك لفظُ «الظُّلم والعدل»، و«المعروف والمنكر»، ونظائره أكثر من أن تُحصَى^(٣).

والمقصودُ أن المقصودَ من اجتماعِ الناسِ وتعاشرِهِم التعاونُ على البرِّ والتقوى؛ فَيُعَيَّن كلُّ واحدٍ صاحبه على ذلك علماً وعملاً فإنَّ العبدَ وحده لا يَسْتَقِلُّ بعلمِ ذلك ولا بالقُدْرَةِ عليه، فقتضتْ حكمةُ الربِّ سبحانه أن جعلَ النوعَ الإنساني قائماً بعصهِ بعض^(٤)،

(١) ط: «بشأ من».

(٢) في سائر النسخ: «يتقَى عنه».

(٣) في الأصل: «بعضى». والمثبت من ط وسائر النسخ وانظر الكلام على هذه الأسماء في «قاعدة في الأسماء التي علّق الله بها الأحكام» لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن «مجموع المناوي» (١٩/٢٣٥-٢٥٩)، وراجع أيضاً (١٦٢/٧-١٦٩)

(٤) ط: «ببعضه».

معيناً بعصه لبعض

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

والإثم والعدوان في جانب الهي نظير البر^(١) والتقوى في جانب الأمر.

والفرق ما بين الإثم والعدوان فرق ما بين مُحَرَّمِ الْجَنَسِ وَمُحَرَّمِ الْقَدَرِ^(٢).

فالإثم: ما كان حراماً لجنسه.

والعدوان: ما حُرِّمَ الزيادة^(٣) في قدره، وتعدي ما أباح الله منه.

فالرنا، وشرب الخمر، والسرقه، ونحوها إثم ونكح الخمسة، واستيفاء المَجْنِي عليه أكثر من حقه، ونحوه عُدْوَان.

فالعُدْوَان هو تَعْدِي حدود الله^(٤) التي قال فيها: ﴿يُنَازِلُ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٥). وقال في موضع آخر: ﴿يُنَازِلُ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾^(٦). فهي عن تعديها في آية، وعن قربانها في آية وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الماصدة

(١) في الأصل: «كالبر». والمشت من ط وسائر النسخ

(٢) انظر كلام المؤلف في الفرق بينهما في «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٨-٣٧١)

(٣) ط: «لزيادة».

(٤) في سائر النسخ: «حدود ما أنزل الله»

(٥) سورة البقرة ٢٢٩

(٦) سورة البقرة ١٨٧

بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارة تدحل فيه فتكون منه، وتارة لا تكون داخله فيه فيكون لها حكم مُقابله^(١) فبالاعتبار الأول نهي عن تعديها، وبالاعتبار الثاني نهي^(٢) عن قربها.

فصل

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس، وهو أن تكون مخالطته لهم تدعونا على البر والتقوى، علماً وعملاً.

وأم حاله فيما بينه وبين الله تعالى: فهو إيثار طاعته، وتجنب معصيته، وهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الحق، وواجبه^(٣) بينه وبين الحق.

ولا يَتِمُّ الواجب الأول^(٤) إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بدلت لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر.

ولا يَتِمُّ له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين، والقيام به لله^(٥) إخلاصاً ومحبةً وعبودية.

(١) ط: «المقابلة»

(٢) «نهي» ساقطة من ط

(٣) في بعض النسخ «وواجب».

(٤) «الأول» ساقطة من ط.

(٥) ط: «له بالله».

فيسغي التفطن لهذه الدققة التي كل خلل يدخل على العبد في أداء هذين الواجبين^(١) إنما هو من عدم مراعاتها علمًا وعملاً.

وهذا هو^(٢) معنى قول الشيخ عبدالقادر قدس الله روحه «كن مع الحق بلا خلقي، ومع الخلق بلا نفسي، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخييط، ولم يزل أمره مرطاً»^(٣).

والمقصود بهذه المقدمة ذكر^(٤) ما بعدها.

فصل

لما فصلت عيز السير^(٥)، واستوطن المسافر دار العربة، وحيل بينه وبين مألوفاته وعوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه، أحدث له ذلك نظرًا آخر^(٦)؛ فأحال فكره في أهم ما يقطع به مسارل سفره^(٧) إلى الله ويُنْفِق فيه بقية عمره، فأرشدَه مَنْ بيده الرشد إلى أن أهم شيء يقصده إنما هو الهجرة إلى الله ورسوله، فإنها فرض عيب^(٨)

(١) ط: «الأمرين الواجبين».

(٢) «هو» ساقطة من ط.

(٣) انظر الكواكب لسائرة (٣/ ١١٥) وفيه ذكر بعض من نظم في هذا معنى.

(٤) «ذكر» ساقطة من ط.

(٥) ط: «فصل عيز السفر».

(٦) «آخر» ساقطة من ط.

(٧) ط: «السفر».

(٨) في الأصل: «معين»، والمثبت من ط وسائر النسخ

على كلِّ أحدٍ في كلِّ وقت، وأنه لا انفكاك لأحدٍ من وحيها، وهي مطلوبُ الله ومراده من العباد، إذ الهجرةُ هجرتان هجرة بالجسم من بلد إلى بلد، وهذه أحكامها معلومة، وليس المرادُ الكلامُ فيها.

ولهجرة الثانية هجرة^(١) بالقلب إلى الله ورسوله، وهذه هي المقصودة^(٢) هنا. وهذه الهجرةُ هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة لجسدٍ تابعة لها، وهي هجرة تنصمُنُ «من» و«إلى».

فيهاجرُ بقلبه من محبة غيرِ الله إلى محبته.

ومن عبودية غيره إلى عبوديته.

ومن خوف غيره ورجائه والتوكلِ عليه إلى خوفِ الله ورجائه والتوكلِ عليه.

ومن دعاء غيره وسؤاله والخصوع له والدُّلُّ له^(٣) والاستكينة له إلى دُعَاءِ رَبِّهِ^(٤) وسؤاله والخصوع له والدُّلُّ والاستكينة له^(٥)

وهذا هو^(٦) بعينه معنى الفرار إليه، قال تعالى: ﴿فِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾^(٧)

فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه

(١) ط: «الهجرة».

(٢) في الأصل «المقصود». والمشت من ط وسائر نسخ

(٣) «له» ساقطة من ط.

(٤) ط «دعائه»

(٥) «إلى دعاء» الاستكينة له ساقطة من سائر النسخ

(٦) «هو» ساقطة من ط

(٧) سورة المديريات: ٥٠

ونحنت «من» و«إلى» في هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد؛ فإنَّ الفرارَ إليه سبحانه ينضمَّنُ إفراده بالطلب والعبودية، ولوارمها من المحنة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منارل العبودية، فهو متضمن لتوحيد الإلهية^(١) التي اتفقت عليها^(٢) دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم [أجمعين]^(٣).

وأما^(٤) الفرار منه إليه؛ فهو متضمنٌ لتوحيد الربوبية وإثباتِ القدر، وأنَّ كلَّ ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفرُّ منه العبد، فإنما أوجبه مشيئةُ الله وحده؛ فإنه ما شاء^(٥) الله كان ووجتْ وحوذه بمشيئته، وما لم يشأْ لم يكن، وامتنع وحوذه لعدم مشيئته، فإذا فرَّ العبدُ إلى الله فإنما يفرُّ من شيء [إلى شيء]^(٦) ووجدَ بمشيئة الله وقدره؛ فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه.

ومن تصوَّرَ هذا حقَّ تصوُّره فهمَ معنى قوله ﷺ: «وأعوذُ بك منك»^(٧) وقوله: «لا ملجأَ ولا منجى منك إلا إليك»^(٨) فإنه ليس

(١) في بعض النسخ: «الأكوهية».

(٢) في الأصل وبعض النسخ «عليه»، والمثبت من ط

(٣) من ط

(٤) في الأصل: «فأما».

(٥) ط: «فإن ما شاء».

(٦) الزيادة من ط.

(٧) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة ضمن دعاء مشهور للنبي ﷺ

(٨) أخرجه البخاري (٢٤٧) ومواضع أخرى) ومسلم (٢٧١٠) من حديث براء بن

عزب ضمن الدعاء الذي علَّمه النبي ﷺ عند النوم

في الوجود شيء يُقَرَّرُ منه وَيُسْتَعَاذُ منه وَيُلْجَأُ^(١) منه إلا وهو من الله خلقاً وإبداعاً.

فالعارُ والمستعبدُ فارٌّ مما أوجبه^(٢) قَدْرُ الله ومشيتُهُ وخلقُهُ، إلى ما تقتضيه رحمته وبرُّه ولُطْفُهُ وإِحْسَانُهُ؛ ففي الحقيقة هو هارب من الله^(٣) إليه، ومستعبدُ بالله منه.

وتصوِّرْ هذين الأمرين يُوجِبُ للعبد انقطاعَ عِلْقٍ^(٤) قلبه من غير الله^(٥) بالكُلِّيَّةِ خوفاً ورجاءً ومحبةً؛ فإنه إذا عَلِمَ أن الذي يفرُّ [منه]^(٦) ويستعبدُ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقِهِ، لم يَبْقَ في قلبه خوفٌ من غير خالقه ومُوجِده؛ فتَضَمَّنَ ذلك إفرادَ الله وحده بالخوفِ والْحُبِّ والرجاءِ، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته لكان ذلك موجِباً لحوفه منه، مثل من^(٧) يفرُّ من مخلوق آخرَ أقدرَ منه، فإنه في حال فراره من الأول إلى الآخر خائفاً منه حَذِرٌ^(٨) أن لا يكون الثاني يُعِيدُهُ^(٩) منه، بخلاف ما إذا كان الذي

(١) ط: «يلنجأ».

(٢) ط: «أوجد».

(٣) ق: «فار منه».

(٤) ط: «تعلق».

(٥) ط: «عن غيره».

(٦) زيادة من ط، ق.

(٧) ط: «ما».

(٨) ط: «خائف منه حذراً». ق: «خائفاً منه حذراً».

(٩) ط: «يعيده».

يفرُّ إليه هو الذي قصى وقَدَّرَ وشاء ما يفرُّ منه؛ فإنه لا يبقى في القلب التفاتٌ إلى غيره بوجه^(١).

فتفطن لهذا^(٢) السرُّ العجيب في قوله: «أعوذ بك [منك]^(٣)»،
«لا ملجأ ولا منجى لك إلا إليك»؛ فإنَّ الناس قد ذكروا في
هذا^(٤) أقوالاً، وقلَّ منهم من تعرَّض^(٥) لهذه الكمة التي هي لبُّ
الكلام ومقصوده، وبالله التوفيق.

فتأمل كيف عاد الأمرُ كُلُّه إلى الفرار من الله إليه؛ وهو معنى
الهجرة إلى الله [تعالى]. ولهذا قال النبي ﷺ: «لمهاجر من هَجَرَ
ما نهى الله عنه»^(٦).

ولهذا يقرُّ سبحانه بين الإيمان والهجرة في القرآن^(٧) في غير
موضع؛ لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود أن الهجرة إلى الله تتضمن هجران ما يكرهه، وإتيان
ما يحبه وبرضاه، وأصلها الحبُّ والبُغْضُ؛ فإنَّ المهاجر من شيء

(١) «بوجه» ساقطة من ط.

(٢) ط، ق: «في هذا».

(٣) زيادة من ط، ق.

(٤) ق: «ذلك».

(٥) ط: «من تعرَّض منهم».

(٦) أخرجه المحاري (١٠، ٦٤٨٤) من حديث عبدالله بن عمرو

(٧) «في القرآن» ساقطة من ط.

إلى شيء لا بد أن يكون^(١) ما يهاجر إليه أحب إليه مما يهاجر^(٢) منه؛ فيؤثرُ أحبُّ الأمرين إليه على الآخر، وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعو^(٣) إلى خلاف ما يحبه الله ويرضاه، وقد نلني هؤلاء الثلاث، فلا تزال تدعوه^(٤) إلى غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعو^(٥) إلى مرضاة ربه. فعليه في كل وقت أن يهاجر إلى الله، ولا يَنفكُ في هجرة حتى^(٦) الممات

فصل

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب قوة داعي^(٧) المحبة وضعفه، فكما كان داعي [المحبة]^(٨) في قلب العبد أقوى كنت هذه الهجرة [أقوى و]^(٩) أتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة، حتى إنه^(١٠) لا يكاد يشعر بها علماً، ولا يتحرك بها^(١١) إرادة. والذي يقصى^(١٢) منه المحب أن المرء يوسع الكلام، ويفزع

(١) «أن يكون» ساقطة من ق.

(٢) ط: «أحب مما هاجر». ق: «أحب ممن هاجر».

(٣) ط: «يدعونه».

(٤) ط: «يزالون يدعونه».

(٥) ق: «من الهجرة حتى». ط: «في هجرته إلى».

(٦) ط: «أحب داعي».

(٧) الريادة من ق. وفي ط: «الداعي».

(٨) الريادة من ط.

(٩) «أتم» ساقطة من ط.

(١٠) ط، ق: «لها».

(١١) في الأصل وق: «يقصى».

المسائل في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي الهجرة التي انقطعت^(١) بالفتح، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به في لعمري أصلاً.

وأما هذه الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس [فيه]^(٢) لا يحصُر [فيها]^(٣) علماً ولا إرادة، وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له، والاشتغال بما لا يسجيه غيره^(٤)، وهذه^(٥) حال من عَشِيَتْ بصيرته، وضَعُفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال، والله المستعان، وبه^(٦) التوفيق، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

فصل

وأما الهجرة إلى الرسول^(٧) ﷺ؛ فَمَعْلَمٌ^(٨) لم يبقَ منه سوى رَسْمِهِ^(٩)، ومنهَجٌ لم تترك منه بُيُوتُ الطريق سوى اسمِهِ^(١٠)، وَمَخَاحَةٌ سَفَتْ عليها السَّوافي فَطَمَسَتْ رُسُومَهَا، وأَغَارَتْ^(١١) عليها لأَعادي

(١) ق: «انقطع»

(٢) زيادة ليستقيم السياق.

(٣) من ط

(٤) ط: «والاشتغال بما لا يسجيه وحده عما لا يسجيه غيره»

(٥) ط: «وهذا»

(٦) ط: «وبالله»

(٧) ق: «رسوله»

(٨) ط: «معلم»

(٩) ط: «سمه»

(١٠) ط: «رسمه»

(١١) ط: «أغارت»

فغَوَّرتَ مناهلها وعيونها، فسألُكها غريب بين العباد، فريدٌ بين كل حيٍّ ونادٍ، بعيدٌ على قرب المكان، وحيدٌ على كثرة الجيران، مستوحشٌ مما [به] يستأسون، مستأنسٌ مما به يستوحشون، مقيمٌ إذا ظَعَنُوا، طاعنٌ إذا قَطَنُوا^(١)، منردٌ في طريق طلبه، لا يَقَرُّ قراره حتى يَطْفَرَ بأربه، فهو الكائنُ معهم بجسده، البائنُ منهم بمقصده، نامتٌ في طلب الهدى أعينهم وما ليلٌ مَطِيَّةٌ بنائم^(٢)، وقعدوا عن الهجرة النبوية وهو في طلبها مُشَمَّرٌ قائم، يعيونه بمحالفه آرائهم، ويُرْدُون عليه إزراءً على حالانهم وأهوائهم، قد رَجَمُوا فيه الظُّنون، وأَذَكُرُ^(٣) عليه العيون، وترَبُّصُوا به ريتَ المنون. ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾^(٤) ﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالنَّاسِ وَالْحَيِّ رَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^(٥).

نَحْنُ وَبَيْنَاكُمْ نَمُوتُ وَلَا^(٦) أَفْلَحَ عِنْدَ الْحِسَابِ مَنْ نَدِمَا

والمقصود أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد، وطريقها على غير المشتاق وعِزٌّ بعيد.

(١) في الأصل: «قطموا» تحريف.

(٢) إشارة إلى بيت جرير (في ديوانه: ٩٩٣):

لقد لُمْتُ يا أُمَّ غِيْلَانَ في الشَّرَى ونمتِ وما ليلٌ مَطِيَّةٌ بنائم

(٣) ق، ط «أحدهوا به» وفي هامش الأصل: «أي أحذقوا»

(٤) سورة التوبة ٥٢.

(٥) سورة الأنبياء ١١٢.

(٦) ط: «فما»

[بَعِيدٌ عَلَى كَسَلَانٍ أَوْ دِي مَلَالَةٍ وَأَمَّا عَلَى الْمَشْتَاكِ فَهُوَ قَرِيبٌ] ^(١)

وَلَعَمْرُ اللَّهِ مَا هِيَ إِلَّا نُورٌ يَتَلَالَا، وَلَكِنْ أَنْتَ طَلَامُهُ، وَبَدْرٌ
أَضَاءَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَلَكِنْ أَنْتَ غَيْمُهُ وَقَتَامُهُ، وَمَنْهَلٌ
عَذْبٌ صَافٍ، وَلَكِنْ ^(٢) أَنْتَ كَذَرُهُ، وَمَبْتَدَأُ لَهُ خَيْرٌ عَظِيمٌ ^(٣)، وَلَكِنْ
لَيْسَ عِنْدَكَ خَيْرُهُ.

فَاسْمِعِ الْآنَ شَأْنَ هَذِهِ الْهَجْرَةِ وَالِدَّلَالَةَ عَلَيْهَا، وَحَاسِبِ نَفْسَكَ ^(٤)
بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ هَلْ أَنْتَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهَا أَوِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهَا؟

فَحَدِّ هَذِهِ الْهَجْرَةَ: سَعَرُ الْفِكْرِ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الْإِيمَانِ،
وَنَارِلَةٍ مِنْ نَوَازِلِ ^(٥) الْقُلُوبِ، وَحَادِثَةٍ مِنْ حَوَادِثِ الْأَحْكَامِ، إِلَى
مَعْدِنِ الْهُدَى وَمَسِجِ التَّوَرِّ الْمَتَلَفِيِّ مِنْ فَمِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ، الَّذِي
لَا يَطْلُقُ عَنِ الْهُوَى ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ ^(٦)، فَكُلِّ مَسْأَلَةٍ صَدَعَتْ ^(٧)
عَلَيْهَا شَمْسُ رِسَالَتِهِ وَإِلَّا فَاقْدِفْ بِهَا فِي بَحَارِ الظُّلُمَاتِ ^(٨)، وَكُلِّ شَاهِدٍ

(١) البيت ساقط من الأصل، وهو لجميل بشية في ديوان المعري (٢/ ١٢٩)
وسمى تلالِي (٢/ ٧١٩) والمبارل والديار (١/ ٣٤٧) ووفيات الأعيان (١/
٣٦٨) وديوانه ٣٠

(٢) «لكن» ساقطة من ق، ط

(٣) ط: «لخير عظيم».

(٤) ط: «أما».

(٥) ط، ق: «نازل من مارل»

(٦) سورة النجم: ٤

(٧) ط: «صدع».

(٨) ط: «بحر الظلمات».

عدّله هذا المزكّي الصادق^(١) وإلا فعُدّه من أهل الريب والتهمات،
فهذا هو حدّ هذه الهجرة.

فما للمقيم في مدينة طَبِيعِهِ وعَوَائِدِهِ، القاطن في دار مَرَبَاهِ
ومولده^(٢)، القاتل. إنا على طريقة آثانّا سالكون، وإنا بحسبهم
مستمسكون، وإنا على آثارهم مُقْتَدُونَ، وما لهذه الهجرة؟ قد ألقى
كُلُّهُ^(٣) عليهم، واستند في معرفة طريق نجاتِهِ^(٤) وفلاحِهِ إليهم،
معتدراً بأن رأيهم له^(٥) خيرٌ من رأيه لنفسه، وأن ظنونهم وآراءهم
أوثق من ظنّه وحَدْسِهِ.

ولو فتّشت عن مصدر هذه الكلمة لوجدتها صادرة عن الإحلال
إلى أرض البطالة، متولدة من بَعْلٍ^(٦) الكسل وروجتة الملاة.

والمقصود أنّ هذه الهجرة فرضٌ على كل مسلم، وهي مقتضى
شهادة أن محمداً رسول الله، كما أنّ الهجرة الأولى مقتضى شهادة
أن لا إله إلا الله.

وعن هاتين الهجرتين يُسألُ كلُّ عبدٍ يومَ القيامة وفي البرزخ،

(١) «الصادق» ساقط من ط.

(٢) في الأصل: «موالده»

(٣) ط: «التي كلت»

(٤) ط: «طريقة نجاحه».

(٥) «له» ساقط من ط.

(٦) «بعل» ساقط من ط، ق.

وَيُطَالَبُ بِهِمَا فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ مُطَالَبٌ بِهِمَا فِي الدُّوَرِ الثَّلَاثَةِ. دَارُ الدُّنْيَا^(١)،
وَدَارُ الْبَرْدِخِ، وَدَارُ الْقَرَارِ. قَالَ قَتَادَةُ^(٢): «كَلِمَتَانِ يُشَارُ بِهِمَا
الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ: مَاذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ وَمَاذَا أَجْتَمَعَ الْمُرْسِدِينَ؟».

وَهَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ هُمَا مَصْمُونِ الشَّهَادَتَيْنِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣)؛ فَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ
بِأَجَلٍ مُّقْسَمٍ بِهِ - وَهُوَ نَفْسُهُ عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَسْتُ لَهُمُ الْإِيمَانُ،
وَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَهْلِهِ، حَتَّى يُحَكِّمُوا رَسُولَهُ فِي جَمِيعِ مَوَارِدِ النِّزَاعِ،
وَهُوَ كُلُّ مَا شَخَّرَ بَيْنَهُمْ مِنْ مَسَائِلِ النِّزَاعِ^(٤) فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الدِّينِ.
فَإِنَّ لَفْظَةَ «مَا» مِنْ صَيَغِ الْعُمُومِ؛ فَإِنَّهَا مَوْصُولَةٌ تَقْتَضِي نَفْيَ الْإِيمَانِ
إِذَا لَمْ يُوجَدْ^(٥) تَحْكِيمُهُ فِي جَمِيعِ مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى هَذَا حَتَّى ضَمَّ إِلَيْهِ إِشْرَاحَ صُدُورِهِمْ بِحُكْمِهِ،
حَيْثُ لَا يَجِدُوا^(٦) فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا - وَهُوَ الصُّبْقُ وَالْحَصَرُ - مِنْ
حُكْمِهِ، بَلْ يَتَلَقَّوْا حُكْمَهُ^(٧) بِالْإِشْرَاحِ، وَيَقَابِلُوهُ بِالْقَوْلِ^(٨)، لَا أَنَّهُمْ

(١) «فَهُوَ... الدُّنْيَا» سَافِطَةٌ مِنْ ط.

(٢) رَوَى بَحْرُهُ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، انْظُرْ تَفْسِيرَ الطَّبْرِيِّ (١٤ / ٤٦) وَنَ كَثِيرٌ (٢ / ٥٧٩)

(٣) سُورَةُ النِّسَاءِ: ٦٥.

(٤) «وَهُوَ... النِّزَاعُ» سَافِطَةٌ مِنْ ط، ق.

(٥) ط: «أَوْ يَوْجَدُ»

(٦) ط: «لَا يَجِدُونَ»

(٧) ط: «يَقْبَلُوا حُكْمَهُ»

(٨) ط: «بِالتَّسْلِيمِ»

يأخذونه على إغماضي، ويشربونه على أقذائي^(١)، فإن هذا منافٍ للإيمان، بل لابد أن يكون أحذه بقبول ورضى واشترح صدر.

ومنى أراد العبد أن يعلم منزلته من^(٢) هذا فليتنظر في حاله، وليطالع قلبه^(٣) عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلّد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دوابها، ﴿يَلِيَّ لَيْسَنُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ وَلَوْ أَلْفَ مَعَادِيرٍ ﴿١﴾^(٤)

فسحاح الله كم من حرارة في قلوب^(٥) كثير من الناس من كثير من النصوص وبوؤهم أن لو لم ترد؟

وكم من حرارة^(٦) في أكبادهم منها؟

وكم من شجى في خلوقهم من موردها؟

ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تلى السرائر

ثم لم يقتصر [سحانه]^(٧) على ذلك حتى ضم إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾؛ فذكر الفعل مؤكداً له^(٨) بمصدره القائم

(١) ط: «فدى»

(٢) «منزلته من» ساقطة من ط.

(٣) ط: «ويطالع» في قلبه.

(٤) سورة اقيامه ١٤، ١٥

(٥) ط: «نفوس»

(٦) في لأصل «حرارة»

(٧) زياده من ط، ق

(٨) «له» ساقطة من ط

مقام ذكره مرتين. وهو الخضوع له، والانقياد لما حكم به طوعاً وريصاً، وتسليحاً لا قهراً ومصابرة؛ كما يُسلمُ المقهورُ لمن قهره كرهه، بل تسليم عبدٍ محبٍّ^(١) مطيعٍ لمولاه وسيده الذي هو أحقُّ شيءٍ إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه، ويعلم^(٢) بأنه أولى به من نفسه، وأبرُّ به منها، وأرحمُ به منها، وأنصحُ له منها، وأعلمُ بمصالحه منها، وأقدرُ على تحصيلها^(٣)

فمنى علم العبدُ هذا من الرسول ﷺ استسلم له، وسلم إليه، وانتقدت كل ذرة من قلبه^(٤) إليه، ورأى أنه لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد.

وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة، بل هو أمر قد انشأ [له]^(٥) القلبُ واستقرَّ في شؤيداته، لا تغيُّ العبارة بمعناه، ولا مَطْمَعٌ في حصوله بالدعوى والأمانى.

فكُلُّ يَدْعُونَ وَصَالَ لَيْلَى وَلَكِنْ لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَ^(٦)

(١) «محب» ساقطة من ط

(٢) في الأصل «وعينه»

(٣) ط «أحببها» ق: «حفظها»

(٤) ط «وانتقدت له كل علة في قلبه».

(٥) زيادة من ق.

(٦) كذا، في الأصل، والرواية المشهورة: وكلُّ يَدْعِي وَصَلَ لَيْلَى • وليس .. وهو من حائر الشعر الذي لم ينسب لقائل معين.

وفرق^(١) بين علم الحُبِّ وحال الحُبِّ؛ فكثيراً ما يشتبه على العبد علم الشيء بحاله ووجوده.

وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال وهو مُنْحَنٍ بالمرض، وبين الصحيح السليم وإن لم يُحسِّن وصف الصحة والعبارة عنها.

وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به، وبين حاله ووجوده. وتأمل تأكيدَه سبحانه لهذا المعنى المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد:

أولها. تصديرها بلا النافية، وليست زائدة كما يظنُّ من يظنُّ ذلك، وإنما دخولها لسرٍّ في القسم، وهو الإيذان^(٢) بتضمين المُقسَمِ عليه للنفي، وهو قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾

وهذا منهجٌ معروف في كلام العرب، إذا أقسموا على شيء^(٣) صدّروا جملة القسم بأداة نفي، مثل هذه الآية، ومثل قول لصديق رصي الله عنه: «لأَها الله، لا يَغِيذُ إلى أَمَدٍ من أَسَدٍ الله يقاتل عن الله ورسوله؛ فيعطيك سَلَبه»^(٤)

(١) في الأصل: «الفرق».

(٢) «بلا النافية... الإيذان» ساقطة من ط، ق.

(٣) ط: «شيء منفي».

(٤) أخرجه البحاري (٣١٤٢، ٤٣٢١) ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة.

وقال الشاعر:

فَلَا وَأَيْكَ ابْنَةُ الْعَامِرِ يَ لَا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفْرٌ^(١)

وقال الآخر:

فَلَا وَشَ لَا يُلْفَى لِمَا بِي وَلَا لِلْسَذِيهِمْ أَبَدًا دَوَاءٌ^(٢)

وهو في كلامهم أكثر من أن يُذكر

وتأمل جُمْلَ القسم التي في القرآن المصدرة بحرف النفي،
كيف تجد المُقْسَمَ عليه ميمًا ومُتصمًا لنفي، ولا يَحْرُمُ هذا قوله^(٣)
﴿ فَلَا أَقِيمُ مَوْجِعَ الشُّعُورِ ﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٥﴾ إِنَّهُ
لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٦﴾ فإنه لما كان المقصود بهذا القسم نفي ما قاله
الكفار في القرآن من أنه شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين،

(١) البيت من قصيدة لامرئ القيس في ديوانه (ص ١٥٤) وانظر لحنان في
سبئها إليه في فصل المال (ص ٢٨٣، ٢٨٤) والمقاصد الحوية (١ / ٩٨)
وحزاة الأدب (١ / ١٨٠).

(٢) البيت من قصيدة لمسلم بن معد الوائلي في منتهى الطلب (٨ / ١٦٤ - ١٧٠)
وشرح أبيات معني البيت (٤ / ١٤٣ - ١٤٥) وحزاة أدب (١ / ٣٦٤ -
٣٦٥)، وبلاسة في معاني القرآن للقراء (١ / ٦٨) والحصائص (٢ / ٢٨٢)
والمحتسب (٢ / ٢٥٦) والصاحبي (ص ٥٦) والمقاصد الحوية (٤ / ١٠٢)
ومصادر أخرى والرواية المشهورة «ولا لما بهم أذى».

(٣) في الأصل: «كقوله»، والمثبت من ط، ق.

(٤) سورة الواقعة: ٧٥-٧٧.

كيف^(١) صدر القسم^(٢) بأداة النفي، ثم أثبت له خلاف ما قالوه، فتضمنت الآية معنى^(٣) ليس الأمر كما يزعمون، ولكه قرآن كريم.

ولهذا صرح بالأمريين النفي والإثبات في مثل قوله ﴿لَا أَقِيمُ بِالْحَسَنِ﴾^(٤) وَالْكَافِرِ الْكَافِرِ ﴿وَالْأَيْلِ إِذَا عَمَّسَ﴾^(٥) وَالصَّيْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿إِنَّ لِقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^(٦).

وكذلك قوله ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٧) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّا نَجْعَلَ عِظَامَهُ﴾^(٨) بَلْ قَدِيرِينَ عَلَّ أَرْسُومَى بَنَانَهُ^(٩).

والمقصود أن افتتاح هذا القسم بأداة النفي يقتضي تقوية المُقَسِّم عليه وتأكيده وشدة انتفائه.

وثانيها: تأكيد نفس القسم.

وثالثها. تأكيد بالمُقَسِّم به، وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته، وهو سبحانه يُقِيمُ بنفسه تارة، وبمخلوقاته تارة.

ورابعها: تأكيد بانتفاء الحرج، ووجود^(٦) التسليم.

(١) كيف، ساقط من ط

(٢) ص، ق، انقول

(٣) ط، ار

(٤) سورة التكاوير ١٥ - ١٩. ويعد في النسخ. «وما هو بقور شاعر»، وليست ضمن هذه الآيات.

(٥) سورة القيامة، ١ - ٤.

(٦) ط، ق: «وهو وجود».

وخامسها: تأكيد الفعل بالمصدر .

وما هذا التأكيد والاعتناء^(١) إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العطية، وأنه مما يُعْتَنَى به، ويُقَرَّر في نفوس العباد بما هو من أبلغ أنواع التقرير .

وقال تعالى ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(٢) . وهذا^(٣) دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أموراً:

مها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه؛ لأن الأولوية^(٤) أصلها الحب، ونفس العبد أحب إليه^(٥) من غيره، ومع هذا فيجب^(٦) أن يكون الرسول أولى به منها، وأحب إليه منها؛ فذلك يحصل له اسم الإيمان

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضى والتسليم وسائر لوازم المحبة، من الرضى بحكمه، والتسليم لأمره، وإشاره على كل من سواه^(٧) .

ومنها: أن لا يكون للعبد حُكْمٌ على نفسه أصلاً، بل الحكمُ

(١) «رعاية» ساقط من ط، ق .

(٢) سورة الأحزاب: ٦ .

(٣) ط «وهو»

(٤) في الأصل: «الولاية» .

(٥) ط «له» . ق: «بها» .

(٦) ط: «يجب» .

(٧) ط: «على ما سواه» . ق: «على هواه» .

على نفسه للرسول، بحكم عليها أعظم من حُكم السيد على عبده،
والوالد^(١) على ولده؛ فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف
فيه الرسول الذي هو أولى به منها.

فيا عجبًا كيف تحصل هذه الأولوية لعد قد غرل ما جاء به
الرسول عن منصب التحكيم، ورَضِي بحكم غيره، واطمأن إليه
أعظم من طمأنينته^(٢) إلى الرسول ﷺ، وزعم أن الهدى لا يتلقى
من مشكاته، وإنما يتلقى من دلالات^(٣) العقول، وأن ما جاء^(٤) به
لا يفيد اليقين، إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه
وعما جاء به، والحوالة في العلم النافع على^(٥) غيره، ودلت هو
الضلال المبين^(٦).

ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه،
وتوليته في كل شيء، وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء
به؛ فإن شهد له بالصحة قبله، وإن شهد له بالبطلان رده، وإن لم
تتبين شهادته له بصحة^(٧) ولا بطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل
الكتاب، ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به؟

(١) ط: «أو الوالد».

(٢) ط: «طمأنينه».

(٣) ط: «دلالة».

(٤) ط: «الذي جاء».

(٥) ط: «إلى».

(٦) ط، ق: «البعد».

(٧) ط: «لا بصحة».

فمن سلكَ هذه الطريقةَ استقامَ له سَفَرُ المهجرة، واستدامَ له علمُه وعملُه، وأقبلتْ وجوهُ الحقِّ^(١) إليه من كلِّ جهة

ومن المحب أن يدعى حصولَ هذه الأولوية والمحنة التامة من كان^(٢) سعيه واجتهاده ونصبه في الاشتغال بأقوال غيره وبقريرها، والعصب والحمية^(٣) لها، والرضى بها والتحاكم إليها، وعرض ما قال^(٤) الرسول عليها؛ فإن وافقها قلبه، وإن خالفها التمسَ وحوه الحيل، وبلغ في رده لئلا وإعراضا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلُودُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٥).

وقد اشتملت هذه الآية على أسرار عظيمة نحنُ ننبه^(٦) على بعضها لشدة الحاجة إليها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُودُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٧).

(١) ق «خلق»

(٢) في لأصل. «كر»

(٣) ط «لمحنة»

(٤) ط «قوله»

(٥) سورة النساء: ١٣٥.

(٦) ط: «يجب التنبيه».

(٧) سورة النساء: ١٣٥.

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط، وهو العدل، وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد عَدُوًّا كَانَ أَوْ وَلِيًّا، وأحقُّ ما قام له العد بالقسط^(١) : الأقوال والآراء والمذاهب؛ إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره؛ والقيام فيها دلهوى والعصية^(٢) مضادُّ لأمر الله، مُنافٍ لما يَحْتَ به رُسُلُه^(٣)، والقيام فيها بالقسط وطيفةٌ خلقاءِ الرسول في أمته، وأمنائه بين أتباعه، ولا يستحقُّ اسمَ الأمانةِ إلا من قام فيها بالعدل المحض، نصيحةً لله ولكتابه ولرسوله ولعباده.

أولئك هم الوارثون حقًا، لا من يجعل أصحابه ونخلته ومذهبه عِيَارًا^(٤) على الحق وميزانًا له؛ يُعَادِي من حاله ويوالي من وافقه لمجرد^(٥) موافقته ومحلته. فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرصه الله على كل أحد؟ وهو في هذا الباب أعظمُ فرضًا، وأكبرُ وجوبًا.

ثم قال. ﴿شَهِدَاءَ لِلَّهِ﴾ والشاهد هو المُخْبِر، فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور؛ فأمر تعالى أن نكون شهداء^(٦) له مع القيام بالقسط، وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط أيضًا^(٧)، وأن تكون لله لا لغيره.

(١) ط: «بقسط».

(٢) ط: «المعصية».

(٣) ط: «رسوله».

(٤) ط، ق: «معيار».

(٥) ط: «بمجرد».

(٦) ط: «يكون شهداء».

(٧) «أيضًا» ساقطة من ط.

وقال في الآية الأخرى: ﴿كُونُوا قَوْمِ اللَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾^(١)

[فتضمنت الآيتان أموراً أربعة:

أحدها: القيام بالقسط]^(٢).

والثاني: أن يكون لله.

والثالث: الشهادة بالقسط.

والرابع: أن تكون لله.

واختصت آية النساء بالقيام^(٣) بالقسط والشهادة لله، وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط، لشرع عجيب من أسرار القرآن ليس هذا موضع ذكره.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، فأمر سبحانه بأن^(٤) يقام بالقسط، ويشهد به على كل أحد، ولو كان أحب الناس إلى العبد، فيقوم به^(٥) على نفسه، ووالديه اللذين هم أصله، وأقربيه^(٦) الذين هم أخص به والصق^(٧) من سائر الناس،

(١) سورة المائدة: ٨.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) «بالقيام» ساقط من ط.

(٤) ط: «أو»

(٥) ط: «بالقسط»

(٦) ط: «أقربيه»

(٧) ط: «الصديق» تحريف.

فإن ما هي العبد من محبته^(١) لنفسه ولوالديه وأقربيه يمتعه من القيام عليهم بالحق، [ولا سيما إذا كان الحق]^(٢) لمن يبعثه ويعاديه قلوبهم؛ فإنه لا يقوم به في هذه^(٣) الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من [كل]^(٤) ما سواهما

وهذا يمتحن به العبد إيمانه؛ فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه، وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يشنؤه^(٥)، وإنه لا ينبغي له^(٦) أن يحمله بعضه لهم على^(٧) أن يجتف^(٨) عليهم، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط، فلا يدخله ذلك البغض في باطل، ولا يقصر به هذا الحب عن الحق. كما قال بعض السلف^(٩) «العادل هو الذي إذا غصبت لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رصي لم يخرجته رضاه عن الحق».

(١) ط «محبته»

(٢) ساقط من الأصل.

(٣) ط: «هذه».

(٤) من ط، ق.

(٥) ط: «يجمؤه»، ق: «يسوء».

(٦) «له» ساقطة من ط.

(٧) «على» ساقطة من ط.

(٨) ط: «يجتف».

(٩) روي نحوه عن محمد بن كعب، كما في «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٧٦) وأخرج لظفراني في «الصغير» (ص ١١٤) عن أسد مرقوعا نحوه، قال الهيثمي في «المجمع» (٥٩/١): فيه شر من الحسين وهو كذاب

فاشتملت الآيتان على هذين الحكمين وهما القيام بالقسط والشهادة به على الأولياء والأعداء.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ ؛ أي . إن يكن المشهود عليه غنيًّا ترجون وتأملون غوْدَ مفعلة غناه عليكم فلا تقومون عليه ، أو فقيرًا فلا ترجونه ولا تخافونه ، فالله أَوْلَىٰ^(١) بهما منكم ، هو ربهما ومولاهما ، وهما عبْدَاهُ^(٢) كما أنكم عبْدُهُ ، فلا تُخَابُوا عبْدًا لِعَبَادِهِ ، وَلَا تَطْمَعُوا فِي^(٣) فقير لفقره ؛ فإن الله أَوْلَىٰ بهما منكم .

وقد يقال . فيه^(٤) معنى آخر أحسن من هذا ، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغني والفقير ؛ أما الغني فخوفًا على ماله ، وأما الفقير فإلغْذَامِهِ ، وأنه لا شيء له ؛ فتساهل المموس في القيام عليه بالحق ، فقليل لهم . الله أَوْلَىٰ بالغني والفقير منكم ، أعلم بهذا ، وأرحمُ بهذا ؛ فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غني ولا فقير .

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل .

(١) أي . ي . يكن بهما ساقطة من ط ، ق

(٢) ط «عبده»

(٣) «طمعوا في» ساقطة من ط .

(٤) ق «في هذا»

وقوله: ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ منصوبٌ الموضع على أنه^(١) مفعول لأجله. وتقديره عند البصريين: كراهية أن تعدلوا، أو حذار أن تعدلوا؛ فيكون «تباعكم ابهوى كراهية العدل وفراراً منه» وعلى قول الكوفيين التقدير: أن لا تعدلوا.

وقول البصريين أحسن وأظهر^(٢).

ثم قال تعالى ﴿وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ نَعَسْتُمْ فَاِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق محذراً منهما، متوعداً عليهما:

أحدهما: اللّي.

والآخر: الإعراض.

فإن الحق إذا ظهرت حجبته، ولم يجد من يزوّم دفعها طريقاً إلى دفعها، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها، فكان شيطاناً أحرس، وتارة يلويها أو يحرفها.

ولّي مثل القتل، وهو التحريف وهو نوعان: لّي في اللفظ، ولّي في المعنى.

فاللّي في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق؛ إما بزيادة لمظة، أو نقصانها، أو إبدالها بغيرها، أو لّي^(٣) في كسبية

(١) ط «الهاء».

(٢) انظر معاني القرآن للسحاس (٢/ ٢١٣) وراى المير (٢/ ٢٢٢) والحر المحيط (٣/ ٣٧٠-٣٧١).

(٣) ط: «ولي». ق: «ولما».

أدائها، وإيهام السامع لفظاً ومراده^(١) غيره؛ كما كان اليهود يُلَوِّضُونَ أَسْتَنَّهُم بِالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢). فهذا أحد نوعي اللَّيِّ.

والنوع الثاني منه لَيُّ المعنى، وهو تحريفه، وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم به^(٣)، وَتَحْمَالُهُ^(٤) ما لم يُرِدْهُ، أو يُسْقِطَ منه بعض ما أراد^(٥) به، ونحو هذا من لَيِّ المعاني، فقال تعالى ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانِ يَمَاتَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾.

ولما كان الشاهد مُطَالَبًا بأداء الشهادة على وجهها، فلا يكتسبها ولا يُعَيِّرُهَا، كن الإعراض نظير الكتمان، واللَّيُّ نظير تغييرها وتبديلها فتأمل^(٦) ما تحت هذه الآية من كوز العلم

والمقصود أن الواجب الذي لا يتمُّ الإيمانُ بل لا يحصلُ مسمًى الإيمان إلا به مقابلةُ الصَّوْصِ بالتَّلْقِي والقبول، والإظهار لها، ودعوة الخلق إليها، لا تُقَابِلُ بالإعراض^(٧) تارة، وباللَّيِّ أخرى. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ

(١) ط: «إرادة».

(٢) كانوا يقولون «السَّلام عليكم» - يقصدون به الموت - كما روى البحري (٢٩٣٥، ٦٠٢٤ ومواضع أخرى) ومسلم (٢١٦٥) عن عائشة

(٣) «به» ساقطة من ط، ق

(٤) ط: «بجهالة» تحريف.

(٥) ط: «لبعض المراد».

(٦) ق: «عاشتم».

(٧) ط: «بالاعتراض».

يَكُونُ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»^(١) فدلَّ هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله^(٢) في كل مسألة من المسائل حُكْمٌ طَلَبِيٌّ أو خَبَرِيٌّ، فإنه ليس لأحد أن يَتَحَيَّرَ لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن [ولا مؤمنة]^(٣) أصلاً، فدلَّ على أن ذلك^(٤) مُصَافٍ للإيمان.

وقد حكى الشافعي رضي الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبان له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدَّعِها لقول أحد^(٥).

ولا يستريب^(٦) أحدٌ من أئمة الإسلام في صحة ما قال^(٧) الشافعي رضي الله عنه. فإن الحجَّةَ الواحِبَ اتِّباعُها على الخلق كافة، إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال

(١) سورة الأحزاب: ٣٦.

(٢) ط «ورسوله».

(٣) زيادة من ط.

(٤) «الحكم فيذهب... أن ذلك» ساقطة من ق.

(٥) ذكره المؤلف عن الشافعي في «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣٥) و«علام الموقعين» (٢/ ٢٦٣) وكتاب «الروح» (ص ٣٥٧). وقد قال الشافعي في «رسالة» (ص ٣٣٠) «إذا ثبت عن رسول الله شيء فهو للآدم بحميم من عرفه، لا يُقَوِّيه ولا يُؤْهِيه شيء غيره، بل العرض الذي على الناس تبعه، ولم يجعل الله لأحدٍ معه أمراً يحالف أمره».

(٦) ط: «لم يستريب»

(٧) ط «فإنه»

غيره فعديتها أن تكون مسائعة الاتباع لا واجبة الاتباع^(١)، فضلاً عن أن تعارض بها النصوص، وتقدم عليها، عياداً بالله من الخدلان

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾^(٢)، فأحرر سبحانه أن الهداية إما هي^(٣) في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معني بالشرط؛ فينتفي بانتفائه، وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يعلط فيه كثير من الناس، ويظهر أنه يحتاج^(٤) في تقرير الدلالة منه إلى^(٥) تقرير كون المفهوم حجة، بل هذا من الأحكام التي رُتبت^(٦) على شروط وعُلقت، فلا وجود لها بدون شروطها، إذا ما عُلّق على الشرط فهو عدم عند عدمه؛ وإلا لم يكن شرطاً له إذا ثبت هذا فالآية نصٌّ على انتهاء الهداية عند عدم طاعته

وفي إعادة الفعل في قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ دون الاكتفاء بالفعل الأول سرٌّ لطيف وفائدة جليلة، سذكرها عن قرب إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾، الفعل للمخاطبين،

(١) «لا واجبة الاتباع» سقطت من ط.

(٢) سورة البور: ٥٤

(٣) «إما هي» ساقطة من ط، ق.

(٤) ط، ق: «محتاج».

(٥) ط: «تقريره الدلالة منه لا»

(٦) ط: «ترتبت»

وأصله تولوا، فحدث إحدى التاءين تخفيفاً. والمعنى أنه قد حُمِّلَ أداء الرسالة وتبليغها، وحُمِّلتم طاعته والانقياد له والتسليم؛ كما ذكر البخاري في «صحيحه»^(١) عن الزهري قال: «من الله أبيان، وعلى رسوله»^(٢) البلاغ، وعلىنا التسليم».

فإن تركتم أنتم ما حُمِّلتموه من الإيمان والطاعة، فعليكم لا عليه؛ فإنه لم يُحْمَلْ طاعتكم^(٣) وإيمانكم، وإنما حُمِّلَ تبليغكم وأداء الرسالة إليكم فإن تطيعوه فهو حظكم وسعادتكم وهديتكم، وإن لم تطيعوه فقد أدَّى ما حُمِّل^(٤)، وما على الرسول إلا البلاغ المبين، يس عليه هداكم وتوفيقكم^(٥).

وقد تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٦)، فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله وافتتح الآية ببدانهم^(٧) باسم الإيمان المُشْعِر بأن المطلوب منهم من موجبات

(١) تعبيره في (١٣ / ٥٠٣) وأخرجه ابن أبي عاصم في «الرهدة» (٧١) ومحمد بن نصر لمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١ / ٤٨٧) وابن حبان في «صحيحه» (١ / ٤١٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٣ / ٣٦٩).

(٢) ط، ق: «الرسول».

(٣) طاعتكم و«ساقطة من ط».

(٤) فهو حظكم... ما حمل «ساقطة من ط، ق».

(٥) ط: «هداهم وتوفيقهم».

(٦) سورة النساء: ٥٩.

(٧) ط: «بالنداء».

الاسم الذي تُودُّوا وُخُوطُوا^(١) به، كما يقال: يا مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عليه وأغناه من فضله! أَحْسَنَ كما أَحْسَنَ اللهُ إليك. ويا أيها العدمُ علِّم الناسَ ما ينفَعهم ويا أيها الحاكمُ احْكُم بالحقِّ، وبصائرهِ. ولهذا كثيراً ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَرُوا﴾^(٢):

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَرُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾^(٣)

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَرُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾^(٤)

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَرُوا أَوفُوا بِالْمُفُورِ أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾^(٥)، ونظائره^(٦)

ففي ذلك^(٧) إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين؛ فلا إيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه.

ثم قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾؛ ففرق بين طاعته وطاعة رسوله في الفعل، ولم يُسلط الفعل الأول عليها، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٨)، فقرَنَ بين طاعة الرسول^(٩) وطاعة أولي

(١) ط: «نودوا به وخطبوا».

(٢) «بقوله يا أيها الذين آمنوا» ساقطة من ط.

(٣) سورة البقرة ١٨٣.

(٤) سورة الجمعة ٩.

(٥) سورة المائدة: ١.

(٦) «ونظائره» ساقطة من ط.

(٧) ط: «هذا».

(٨) «افرق... وأطيعوا الرسول» ساقطة من ط، ق.

(٩) ط: «طاعة الله والرسول» خطأ.

الأمر، وسلط عليهما عاملاً واحداً. وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضي عكس هذا؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، ولكن الواقع في الآية هو المناسبت. وتحتة سرٌ لطيف؛ وهو دلالة على أن ما يأمر به رسوله تجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في القرآن، فتجب طاعة الرسول مفردةً ومقرونةً. فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن^(١)، وإلا فلا تجب طاعته فيه؛ كما قال النبي ﷺ: «يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانُ مَتَكِيٌّ عَلَى أُرَيْكِيَّةٍ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي؛ فَيَقُولُ: بَيْنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ، مَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ اتَّبَعْنَاهُ، إِلَّا وَاتَّبَعْنَا أَوْتَيْتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»^(٢)

وأما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول، لا طاعة مفردة مستقلة، كما صرح عن النبي ﷺ أنه قال: «عَنِ الْمَرْءِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ [فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ]^(٣) مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنْ^(٤) أُمِرَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»^(٥)

(١) «طاعة الرسول... القرآن» ساقطة من ق.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٢ / ٤) والدارمي (٥٩٢) والترمذي (٢٦٦٤) وحسنه، وابن ماجة (١٢) من طريق معاوية بن صالح عن الحسن بن حابر عن المقدم بن معدي كرب وأخرجه أحمد (١٣٠ / ٤) وأبو داود (٤٦٠٤) من طريق حرير ابن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي عوف عن المقدم وصححه الألباني في تعبيه على «المشكاة» (١٦٣).

(٣) من ط، وكذا الرواية.

(٤) ط: «فإذا». ووردت الرواية بالوجهين.

(٥) أخرجه البخاري (٧١٤٤) ومسلم (١٨٣٩) من حديث عبد الله بن عمر

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ولم يقل وإلى الرسول؛ فإن الردَّ إلى القرآن ردُّ إلى الله والرسول، والردُّ إلى السنة ردُّ إلى الله والرسول^(١)، فما يحكم^(٢) به الله هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول هو بعينه حكم الله

فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه، يعني إلى^(٣) كتابه؛ فقد رددتموه إلى الله و^(٤) رسوله وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله؛ فقد رددتموه إلى الله والرسول^(٥)، وهذا من أسرار القرآن.

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد في أولي الأمر، فعنه^(٦) فيهم روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء.

والثانية: أنهم الأمراء^(٧).

(١) «والرد إلى السنة... الرسول» ساقطة من ط، ق.

(٢) ط «حكم»

(٣) «إلى» ساقطة من ط.

(٤) «الله و» ساقطة من ط.

(٥) «والرسول» ساقطة من ط.

(٦) ط «وعنه»

(٧) دل شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٨ / ١٥٨) «نص الإمام أحمد وغيره على دحوى الصنفين في هذه الآية، إذ كلُّ منهنَّ تجب طاعته فيب يقوم به من طاعة الله، وكان يواب رسول الله ﷺ في حياته يجمعون للصنفين، وكذلك خلفاؤه من بعده».

ولقولان ثاتان عن الصحابة في تفسير الآية^(١) والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعاً؛ فإن العلماء والأمرء هم^(٢) ولاية الأمر الذي بعث الله به رسوله.

فلعلماء^(٣) ولأئمة حفظاً، وبياناً، وبلاغاً^(٤)، ودباً عنه، ورداً على من ألحد فيه وراغ عنه، وقد وكلهم الله بذلك، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ أَطِيعُوا أَرْوَاقَهُمْ﴾^(٥). فبإياها من وكالة أوجب طاعتهم والانتهاة إلى أمرهم، وكون الناس تبعاً لهم. والأمرء ولأئمة قياماً، ورعاية^(٦)، وجهاداً، وإلزاماً للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه.

وهذان الصنفان هم الناس، وسائر النوع الإنساني تبع لهم ورعية. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

وهذا دليل قاطع على أنه يحب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه

(١) نظر تفسير الطبري (٩٣ - ٩٥ / ٥) والمدخل للبيهقي (٢١٢ - ٢١٤) وراى
المسير (١١٦، ١١٧) وتفسير القرطبي (٢٥٩ / ٥، ٢٦٠) وتفسير ابن كثير
(٥٣٠ / ١) ومنح الدري (٢٥٤ / ٨) والدر المنثور (٥٧٣ - ٥٧٦)

(٢) هم: ساقطة من ط.

(٣) ط: «فإن العلماء».

(٤) «وبلاغاً» ساقطة من ط.

(٥) سورة الأنعام: ٨٩.

(٦) ط: «رعاية».

الناس من الدين كله إلى الله ورسوله، لا إلى أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد على^(١) غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلى تحكيم^(٢) غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وهذا مما ذكرناه أمّا أنه شرط يتفي المشروط باستفائه، فدل على أن من حكّم غير الله ورسوله في موارد النزاع كان خارجاً عن^(٣) مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر. وحسبك بهذه الآية القاصمة العاصمة بياناً وشفاءً، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها، عاصمة للمتمسكين بها الممثلين لما أمرت به: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

وقد اتفق السلف والحلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى^(٥) كتابه، والرد إلى رسوله^(٦) هو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته^(٧).

(١) في الأصل: «أحال في الرد إلى».

(٢) ط: «حكم».

(٣) ط: «من».

(٤) سورة الأنفال. ٤٢.

(٥) إلى: ساقطة من ط.

(٦) ط: «الرسول».

(٧) نظر تفسير الطبري (٥/ ٩٥، ٩٦) وجامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٦٥).

٧٦٦، ٢/ ٩١٠، ١١٧٧، ١١٨٩) والعقبه والمتعقبه (١/ ١٤٤) وتفسير =

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولي^(١) الأمر، ورد ما تنزعتم فيه إليّ وإلى رسولي، خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في لدارين، فهو خير لكم وأحسن عاقبة.

فدلّ هذا على أن طاعة الله ورسوله، وتحكيم الله ورسوله، هو سبب السعادة عاجلاً وآجلاً.

ومن تدبّر العالم والشُرور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم فسيبه^(٢) مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنما هو^(٣) بسبب طاعة الرسول. وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها، بما هي^(٤) موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شرٌ قط.

وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض؛ فكذلك هو في الشر والآلم والغم الذي يُصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، وإلا فطاعته^(٥) هي الحصن

الفرطبي (٥ / ٢٦٦) والدر المثور (٢ / ٥٧٩).

(١) ط: «أولياء»

(٢) ط: «سببه»

(٣) ط: «وهو»

(٤) ط، ق: «هو»

(٥) ط: «ولأن طاعته»، ق: «ولأن طاعته».

الذي من دخله فهو^(١) من الآمنين، والكهف الذي [من]^(٢) لحاً إليه فهو^(٣) من الناجين.

فَعُيِمَ أن شرور الدنيا والآخرة إنما هي^(٤) الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والخروج عنه، وهذا برهان قاطع على أنه^(٥) لا نعمة للعبد ولا سعادة إلا باجتهاده^(٦) في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً، والقيام به عملاً.

وكمالُ هذه السعادة بأمرين آخرين:

أحدهما: دعوة الخلق إليه.

ولثاني: صبره وجهاده^(٧) على تلك الدعوة

فنحصر الكمال الإنساني في^(٨) هذه المراتب الأربعة.

إحداها: العلم بما جاء به الرسول.

الثانية: العمل به.

(١) ط، ق: «كان»

(٢) من ط، ق.

(٣) ط، ق: «كان»

(٤) ط: «هو»

(٥) ط، ق: «أن»

(٦) ط، ق: «بالاجتهاد»

(٧) ط، ق: «اجتهاده»

(٨) ط: «على»

الثالثة: بَيِّنَةُ^(١) في الساس، ودعوتهم إليه.
 الرابعة: صبره وجهاده^(٢) في أدواته وتنفيذه.
 ومن تطلَّعت^(٣) هِمَّتُهُ إلى معرفة ما كان عليه الصحة وأراد
 اتباعهم؛ فهذه طريقتهم حقًا.

وَإِنْ شِئْتَ وَضَّلَ الْقَوْمَ فَاسْلُكْ طَرِيقَهُمْ^(٤) فَقَدْ وَضَّحْتَ لِلسَّالِكِينَ عِيَانًا
 وَقَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ
 اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَغَبْتُ أَنِّي سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾^(٥).
 فهذا نص صريح في أن هُدى الرسول ﷺ إنما حصل^(٦) بالوحي،
 فبا عجبًا كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء ولعقول المختلفة
 والأقوال المضطربة؟ ولكن ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ
 يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا مَرشِدًا﴾^(٧).

فأي ضلالٍ أعظم من ضلالٍ مَنْ يزعم^(٨) أن الهداية لا تحصل
 بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلئان^(٩) وقول ريد وعمرو؟

(١) ط، ق «نشر».

(٢) ق «جهاده».

(٣) ط «طلعت».

(٤) ط «سبيلهم».

(٥) سورة سبأ. ٥٠.

(٦) ط «يحصل».

(٧) سورة كهف. ١٧.

(٨) ط «زعم».

(٩) العتب من الرجال. الصب الحري. الحديد نغّاد وهو ما بمعنى فلان

فقد^(١) عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى عِبْدِ عَافَاءٍ مِنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ لِعَظَمَى
وَالْمَصِيبَةِ الْكُبْرَى، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وقل تعالى: ﴿الْمَنْصُورُ﴾ كَتَبَ أَرْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي سَخِرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
يُشِيرُ بِهِ وَيُذَكِّرُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿أَتَّبِعُوا مَا أُرِى إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا قَدْ كُفِرُوا﴾^(٢)؛ فأمر سبحانه باتباع ما أنزل على
رسوله، ونهى عن اتباع غيره، فما هو إلا اتباع المُنَزَّل أو اتباع
أولياء من دونه، فإنه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لم^(٣) يتبع
الوحي فإسما اتبع^(٤) الباطل واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد
الله ظاهر لا خفاء به.

وقل تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الْأَطْلَامُ عَمَّا يَدْعُوهُ يَكْفُورُ يَنْتَقِي اتَّحَدَتْ مَعَ
الرُّسُولِ مَيْمِلًا﴾ يَتَوَلَّى لِيَتَّخِذَ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿لَقَدْ أَصَلَّى عَلَى الذِّكْرِ
بَعْدَ إِذْ جَاءَ فِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾^(٥)

فكل من اتحد خليلًا^(٦) غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما
جاء به الرسول؛ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا فإنه سبحانه

(١) ط: «ولقد».

(٢) سورة الأعراف: ١-٣.

(٣) ط: «لا».

(٤) ط: «يتبع».

(٥) سورة الفرقان: ٢٧-٢٩.

(٦) «خليلًا» ساقط من ط.

لم يُعَيَّنْ^(١) هذا الخليل، وكُنِيَ عنه باسم فلان، إذ لكل متبع أولياء^(٢) من دون الله فلان وفلان.

فهذا حال هذين الخليلين المتخالفين على خلاف طاعة الرسول، ومآل تلك الخلّة إلى العداوة واللّعة؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ تَفَضُّهُمْ بَعْضُهُمْ إِلَى الْآخَرِ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(٣)

وقد ذكر تعالى حال هؤلاء الأتباع وحال من اتبعوهم^(٤) في غير موضع من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وقالوا ربّنا إنّنا أطعنا سادتنا وكبراءتنا فأصلحنا السبيل^(٥) ربّنا إنهم ضلّوا من العذاب والعصم لعدا كبيرا^(٦).

تمنى القوم طاعة الله وطاعة^(٦) رسوله حين لا ينفهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية، وبالله التوفيق.

(١) إنه سبحانه لم يعين ساقطة من ط، ق

(٢) في الأصل: «ولياء»

(٣) سورة الرخرف: ٦٧.

(٤) ط «اتبعوهم»

(٥) سورة الأحزاب: ٦٦، ٦٨.

(٦) «طاعة» ساقطة من ط.

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَقٌّ إِنَّا جَاءَهُمْ رَسُولًا بِمُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَأَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ ادْعُوا فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْحَيِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبًّا هَؤُلَاءِ أَصَلُّونَا فَتَأْتِيهِمْ عَذَابًا صِغَفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَتْ أُولِنَهُمْ لِأَخْرَيْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَدُفِنُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣١﴾ ﴾^(١)

وليتدبر العاقل هذه الآيات وما اشتملت عليه من العبر

قوله تعالى : ﴿ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ ذكر الصفتين المبطليتين :

أحدهما : مُنْشِئُ الباطل والفرية ، وواضعها ، وداعي الناس إليها .

والثاني : المكذِّب^(٢) بالحق .

فالأول كفره بالافتراء وإنشاء الباطل ، والثاني كفره بجحود الحق . وهذان النوعان يعرضان لكل مُبْطِل ؛ فإن انصاف إلى ذلك دعوته إلى باطله ، وصدُّ الناس عن الحق ، استحقُّ تصعيف العذاب ؛ لتضاعف كفره^(٣) وشره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ

(١) سورة الأعراف : ٣٧ - ٢٩

(٢) ط : « مكذب »

(٣) ط : « الكفرة »

كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿١﴾ ، فلما كفروا وصدُّوا عِبَادَهُ عَنْ سَبِيلِهِ عَذَّبَهُمْ عَذَابَيْنِ : عَذَابًا بِكُفْرِهِمْ ، وَعَذَابًا بِصُدُّهِمْ عَنْ سَبِيلِهِ

وحيث يذكر الكفر المحرّد لا يعدّد العذاب ؛ كقوله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ يعني : ينالهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُثَبِّتُ لَهُمْ قَوْلًا بَيِّنًا مَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، أين من كنتم تُوالون فيه وتُعادون فيه ، وترجونه وتخافونه من دون الله؟ (٣) ﴿ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا ﴾ . زالوا وفارقوا ، وبطلت تلك الدعوة .

﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ﴿ ، ادخلوا في جملة هذه الأمم .

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُحْرِقُنَّهَا لِأُولَئِنَّهِنَّ ﴾ كل أمة متآخرة ضلّت بأسلافها (٤) .

﴿ رَسَاءَ هَؤُلَاءِ أَصْلَحْنَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا صَعَفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ ضَاعِفٌ عليهم

(١) سورة النحل : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة : ١٠٤ ، سورة المجادلة : ٤

(٣) «أين . . . دون الله» ساقطة من ط .

(٤) ط : «متآخرة لأسلافها» .

العذاب^(١) بما أضلُّونا وصدُّونا عن طاعة رُسُلِكَ.

﴿قَالَ﴾ اللهُ تعالى ﴿لِكُلِّ ضَعْفٍ﴾ من الاتِّباع والمتَّبوعين بحسب ضلاله وكفره.

﴿وَلَيْكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لا تعلم كل طائفة بما في اختها من العذاب المضاعف.

﴿وَقَالَتْ أُولَئِنَّهُمُ لِآخَرَتِهِمْ مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾؛ فإنكم حثمت بعدنا فأرسلت فيكم الرسل، وبينوا لكم الحق، وحذَّروكم من ضلالتنا، ونهَّوكم عن اتِّباعنا وتقليدنا؛ فأبيتم إلا اتِّباعنا وتقيدنا، وتركَّ الحق الذي أتتكم به الرسل، فأبى فضل كان لكم عليه، وقد ضللتكم كما ضللتنا، وتركتم الحق كما تركناه؛ فضللتكم أنتم به كما ضللتنا نحن بقوم آخرين، فأبى فضل لكم علينا؟^(٢) ﴿مَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾^(٣).

فلله ما أشفاها من موعظة، وما أبلغها من نصيحة، لو صادفت من القلوب حياة، فإن هذه الآيات^(٤) وأمثالها مما تُذكر^(٥) قلوب السائرين إلى الله، وأما أهل البطالة الثكلة^(٦) فليس عندهم من ذلك خير^(٦)

(١) ط: «ضاعفه عليهم».

(٢) «وقد ضللتكم لكم علينا» ساقطة من ق

(٣) ط: «الآية».

(٤) ط: «يلذكر»

(٥) «الثكلة» ساقطة من ط. ولعل معناها البطالة الهذلكه

(٦) في الأصل: «خير»

فصل

وهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشتركين في الضلالة، وأما الأتباع المخالفون لمتبوعيهـم، العادلون عن طريقتهـم، الذين يزعمون أنهم تبع لهم^(١)، وليسوا متبـعين لطريقتهـم، فهم المذكورون في قوله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْمَكْدَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا كُرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾

فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى^(٣)، وأتباعهم ادَّعوا أنهم على طريقتهـم ومهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهـم^(٤)، يزعمون أنهم يحبونهم، وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم لهم^(٥)، فيتبرءون منهم يوم القيامة، فمنهم اتحدوهم أولياء من دون الله، وظنوا أن هذا الاتحاد ينفعهم.

وهذه حال كل من اتَّخذ من دون الله ورسوله وَبِجَنَّةٍ وَأُولِيَاءَ، يُؤَالِي لَهُمْ وَيُعَادِي لَهُمْ، ويرضى لهم ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حَسْرَاتٍ عليه مع كثرتها وشدة تبعه

(١) ط «لهم تبع».

(٢) سورة لفره ١٦٦ ١٦٧

(٣) ط «هدى».

(٤) ط «طريقتهـم»

(٥) «لهم» ساقطة من ط

فيها ونُصِّبه، إذ لم يُجرَّد موالاته ومعاداته، ومحَبته وُبُغْضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله؛ فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كُلَّهُ، وقَطَعَ تلك الأسباب، وهي: الوُصْلُ والحوالاة التي كانت بينهم في الدنيا لغيره كما قال: ﴿وَنَقَطَ عَنْهُمْ الْأَسْبَابَ﴾^(١)؛ فينقطع يوم القيامة كل سبب ووُصْلَةٍ ووسيلة وموَدَّة [وموالاة]^(٢) كانت لغير الله، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وبين ربه، وهو حفظه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريد عبادته وحده، ولوَارَمَها من الحُبِّ والبُغْضِ، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد، وتجريد متابعة رسوله وترك أقوال غيره لقوله^(٣)، وترك كل^(٤) ما حالف ما حاء به، والإعراض عنه، وعدم الاعتداد^(٥) به، وتجريد متابعتة تحريداً محضاً نريثاً من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلاً عن الشراكة بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه.

فهذا السبب هو^(٦) الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي أحيثُ التي يحول ما يحول^(٧)، ثم إليها مَرْجِعُهُ.

(١) سورة البقرة ١٦٦. ومن قوله «وهي الوصل» إلى هنا ساقط من ط، ق

(٢) من ط.

(٣) «لقوله» ساقط من ط.

(٤) «كل» ساقط من ط.

(٥) ط: «الاعتناء»

(٦) ط: «هو السبب».

(٧) ط: «يحول ما يحول».

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى

مَا الْحَبِيبُ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ

كَمْ مَرَرٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلُفُهُ الْفَتَى

وَحَيْثُ بِهِ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَرَرٍ^(١)

وهذه النسبة هي^(٢) التي تصع العبد، فلا ينفعه غيرها في الدُّورِ الثلاثة؛ أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ فلا قِوَامَ له ولا عِشْرَ ولا نعيم ولا فلاحَ إلا بهذه السببة، وهي السبب الواصل بين العبد وبين الله، ولقد أحس القائل حيث قال^(٣):

إِذَا تَقَطَّعَ حَبْلُ الْوَصْلِ بَيْنَهُمْ فَلِلْمَحْبِيبِ حَبْلٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ

وَإِنْ تَصَدَّعَ شَمْلُ الْوَصْلِ بَيْنَهُمْ فَلِلْمَحْبِيبِ شَمْلٌ غَيْرُ مُتَصَدِّعٍ^(٤)

والمقصود أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسبابَ ولُغْلُقَ والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين ربه فقط، وهو سبب العبودية

(١) هم لأبي تمام في ديوانه (٢٥٣ / ٤) والبيان والنسب (٣١٣ / ٣) وأحضر أبي تمام للصولي (ص ٢٦٣). والأول في الصاعين (ص ٢٠٤) واحصانص (٢ / ١٧١) والموازنة لأمدي (ص ٦٠) ودلائل الاعشار (ص ٤٩٥) وهم لا نسبة في العقد الفريد (٣ / ٤٧٠، ٦ / ١٠٢)

(٢) ط: «هي النسبة».

(٣) «حيث قال» ماقطة من ط.

(٤) ذكرهما المؤلف في روضة المحبين (ص ٢٨٠).

فهؤلاء هم الشُعَداء الذين ثبت لهم رِضَى الله عنهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وكل من تبعهم بإحسان، وهذا يُعْمُ كل من اتبعهم بإحسان^(١) إلى يوم القيامة، ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط، وإنما خُصَّ التابعون^(٢) بمن رأى^(٣) الصحابة تخصيصًا عُرْفِيًّا، لِيُتميزوا به عن بعدهم فقيل: التابعون مطلقًا لذلك القرن فقط، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان، وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه^(٤).

وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تعية [بإحسان، ليست مُطلقة فتَحْصُلُ بمجرد النسبة والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن نعية]^(٥) مصاحبة للإحسان؛ فإن الباء هنا^(٦) للمصاحبة والإحسان في المتابعة شرط في حصول رِضَى الله عنهم وجناته.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾^(٧)

(١) «وهذا... بإحسان» ماقطة من ط، ق.

(٢) ط: «التابعين».

(٣) ط، ق: «رأوا».

(٤) في الأصل: «رضي الله عنه ورضي عن الله».

(٥) سقط من الأصل، وزيد من ط، ق.

(٦) ط: «ههنا».

(٧) سورة الجمعة: ٢-٤.

والأولون هم الذين أدركوا رسول الله ﷺ وصحبوه والآخرون
الذين لم يلحقوا بهم هم كل من بعدهم على مهاجمهم إلى يوم
القيامة، فيكون التأخر وعدم اللحاق بهم في الزمان

وفي الآية قول آخر. إن المعنى لم يلحقوا بهم^(١) في الفضل
والمرتبة^(٢)، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في المرتبة

والقولان كالمتلازمين؛ فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا في
الفصل ولا في الزمان، فهؤلاء الصنفان هم الشعداء

وأما من لم يقتل هدى الله الذي بُعث به رسوله، ولم يرفع به
رأساً، فهو من الصنف الثالث، وهم ﴿الَّذِينَ حَقَلُوا النُّورَةَ ثُمَّ لَمْ
يَحْمِلُوهَا﴾^(٣).

وقد ذكر النبي ﷺ أقسام الحلائق بالنسبة إلى دعوته وما بعثه
الله به [من الهدى]^(٤) في قوله ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى
وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَلَّتِ
الْمَاءُ؛ فَأَنْبَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ^(٥) مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ
الْمَاءُ؛ فَسَقَى النَّاسُ وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ
لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تَنْتِ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ،

(١) «بهم في الزمان... بهم» ساقطة من ط.

(٢) ط: «الرتبة».

(٣) سورة الجمعة: ٥.

(٤) زيادة من ط، ق.

(٥) ط، ق: «كانت».

وَنَفَعَهُ^(١) مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَزْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ^(٢).

فَشَبَّهَ ﷺ الْعِلْمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ بِالْغَيْثِ، لِأَنَّهُ كِلَاهُمَا سَبَبُ الْحَيَاةِ، فَالْغَيْثُ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَبْدَانِ، وَالْعِلْمُ سَبَبُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ

وَشَبَّهَ الْقُلُوبَ الْقَابِلَةَ لِلْعِلْمِ بِالْأَرْضِ الْقَابِلَةَ لِلْغَيْثِ؛ كَمَا شَبَّهَ سُبْحَانَهُ لِقُلُوبِ^(٣) بِالْأَوْدِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾^(٤).

وَكَمَا أَنَّ الْأَرْضِينَ ثَلَاثَةَ بِالسَّبَبِ إِلَى قَوْلِ الْغَيْثِ:

إِحْدَاهَا: أَرْضٌ زَكِيَّةٌ قَابِلَةٌ لِلشُّرْبِ^(٥) وَالْبَيَاتِ؛ فَإِذَا أَصَابَهَا الْغَيْثُ ارْتَوَتْ مِنْهُ، ثُمَّ أَنْبَتَ^(٦) مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

فَهَذَا^(٧) مِثْلُ الْقَلْبِ الرَّكِي الذَّكِي؛ فَهُوَ يَقْبَلُ الْعِلْمَ بِدَكَائِهِ، وَيُثْمِرُ فِيهِ وَجُوهَ الْحُكْمِ وَدِينَ الْحَقِّ نِزَكَاتِهِ؛ فَهُوَ قَابِلٌ لِلْعِلْمِ، مُثْمِرٌ لِمَوْجِبِهِ وَفَقِيهِ وَأَسْرَارِ مَعَادِنِهِ.

(١) ط: «الدين فنفعه»

(٢) أخرجه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٣) «وشبهه... القلوب» ساقطة من ط، ق.

(٤) سورة الرعد: ١٧.

(٥) ط، ق: «للشرب»

(٦) ط: «يشمر الست»

(٧) ط، ق: «عدلك»

والثانية: أرضٌ صلبة قابلة لثبوت الماء^(١) فيها وحفظه، فهذه يستفيع الناس بورودها^(٢) والسقي منها والاردراع.

وهذا^(٣) مَثَلُ القلب الحافظ للعلم، الذي يحفظه كما سمعه، ولا تَصَرُّفَ له فيه ولا استنباط^(٤)، بل له الحفظ المجرد، فهو يؤدي كما سمع، وهو من القسم الذين^(٥) قال فيهم^(٦) النبي ﷺ «قَرُبَ حَامِلٌ فَقِهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَقِهٍ غَيْرُ فَقِهٍ»^(٧)

فالأول مثل^(٨) العني التاجر الخير بوجوه المكاسب والتحارات؛ فهو يكسب بماله ما شاء.

والثاني مثل الغني الذي لا خِبرة له بوجوه الربح والكسب^(٩)، ولكنه حافظ لماله، لا يُحِينُ التصرف والتقلب فيه.

(١) ط: «ماء».

(٢) ط: «تنفع الناس لورودها».

(٣) ط: «وهو».

(٤) ط: «استبط».

(٥) ط: «الذي».

(٦) «فيهم» ساقطة من ط، ق.

(٧) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣) والدارمي (٢٣٥) وأبو داود (٣٦٦٠) وأبو حنيفة (٢٦٥٦) وابن ماجه (٤١٠٥) عن زيد بن ثابت، وصححه الحافظ بن حجر

وعبده. وفي الباب عن ابن مسعود وجابر بن مطعم وأبي ادرء وأبي

وعبدهم، وهو حديث متواتر وقد جمع الشيخ عبدالمحسن بن حمد العبد

طرقه في جرد، ودرسها رواية ودراية.

(٨) ط: «كمثل».

(٩) ط، ق: «المكسب».

والأرض الشائكة أرض قاع، وهو المستوي الذي لا يقبل
النبات، ولا يُمسك ماءً، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تَسْقَعْ
بشيء منه.

فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم ولا^(١) الفقه وإدراية
فيه^(٢)، وإِنما هو بمنزلة الأرض البوار التي لا تُنبت ولا تحفظ
لماء، وهو مثل الفقير الذي لا مال له، ولا يُحسِنُ يُمسِكُ مالاً
فالأول عالمٌ مُعَلِّمٌ، دأب إلى الله على بصيرة، فهذا من ورثة
الرُّسُل.

والثاني حافظٌ مُؤَدِّ لما سَمِعَهُ، فهذا يَحْمِلُ إلى غيره^(٣) ما يَتَجَرُّ
به المحمولُ إليه ويستثمر.

والثالث لا هدا ولا هذا، فهو الذي لم يقبل هُدى الله، ولا
رَفَعَ^(٤) به رأساً.

فاستوعب^(٥) هذا الحديث أقسامَ الخَلْقِ في الدعوة النبوية
ومصارلهم، منها قسمان سعيدان، وقسمٌ شقي^(٦)

(١) «لا» ساقطة من ط.

(٢) «فيه» ساقطة من ط، ق.

(٣) ط: «لغيره».

(٤) ط: «لم يرفع».

(٥) ق: «استوعب».

(٦) ط «مها قسمان قسم سعيد وقسم شقي» وهو خطأ

فصل

وأم النوع الثاني من الأتباع السعداء^(١)، فهم أتباع المؤمنين من ذريتهم، الذين لم يثبت لهم حكم التكليف في دار الدنيا، وإنما هم مع آبائهم تبع لهم. قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(٢).

أحبر سبحانه أنه ألحق الذرية بأبائهم في الجنة، كما أتبعهم إياهم في الإيمان، ولما كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، والصمير عائد إلى الدين آمنوا أي: وما نقصناهم شيئاً من عملهم، بل رفعنا ذريتهم إلى درجاتهم، مع توفيتهم أجور أعمالهم؛ فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل، بل وقيناهم أجورهم، وألحقنا بهم ذرياتهم^(٣) فوق ما يستحقونه^(٤) من أعمالهم.

ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فصلاً من الله، فربما وقع في الوهم أن إلحاق الذرية أيضاً حاصل بهم^(٥) في حكم

(١) «السعداء» ساقطة من ط، ق.

(٢) سورة البقرة ٢١

(٣) ط. «ذريتهم»

(٤) ط «يستحقون»

(٥) ط «بهم»

العدل، فإذا^(١) اكتسبوا سيئاتٍ أوجبت عقوبة، كان كل عامل رهيناً
نكسه لا يتعلق بغيره منه^(٢) شيء.

فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل
والعقاب، وهذا وبحوه^(٣) من أسرار القرآن وكوزه، التي يحتص^(٤)
الله بفهمها من شاء.

فقد تضمنت هذه الآيات أقسامَ الخلائق كلهم سعدائهم
وأشقيائهم: السعداء المتبوعين^(٥) والأتباع، والأشقياء المتبوعين^(٦)
والأتباع.

فعلى العاقل الناصح لمسه أن يطر من أي الأقسام هو، ولا
يغترّ بالعادة ويُخلد إلى البطالة.

فإن كان من قسم سعيد انتقل منه^(٧) إلى ما فوقه، وبذل
جهده، والله ولي التوفيق والنجاح.

وإن كان من قسم شقي انتقل به إلى القسم السعيد في زمن
الإمكان، قبل أن يقول: ﴿يَلِيَّتْنِي أَعْدَتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾^(٨)

(١) ط: «فلما»

(٢) «منه» ساقطة من ط.

(٣) ط، ق: «نوع»

(٤) ق: «يحصر».

(٥) في الأصل: «المتبوعون».

(٦) في الأصل: «المتبوعون».

(٧) «منه» ساقطة من ط.

(٨) سورة الفرقان: ٢٧.

فصل

والمقصود بهذا أن من أعظم التعاون على البر والتقوى التعاون على سمر الهجرة إلى الله ورسوله^(١)، باليد واللسان والقلب، مساعدة، وبصيحة^(٢)، وتعليمًا، وإرشادًا، ومودة.

ومن كان هكذا مع عباد الله كان الله^(٣) بكل^(٤) خير إليه أسرع، وأقبل الله إليه بقلوب عباده، وفتح على قلبه أبواب العلم، ويسره لليسرى. ومن كان بالضد فبالضد، ﴿وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٥)

فإن قلت فقد^(٦) أشرت إلى سفر عظيم وأمر جسيم، فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه؟

قلت: زاده العلم الموروث عن^(٧) خاتم الأنبياء ﷺ، ولا راد له سواه؛ فمن لم يحصل^(٨) هذا الزاد فلا يخرج من بيته، وليقعد مع الحالفين. فرفقاء التخلف^(٩) البطالون أكثر من أن يُحصوا، فه

(١) ط: «الرسول».

(٢) ط: «المساعدة والصيحة».

(٣) «كان الله» ساقطة من ط.

(٤) ط: «بكل».

(٥) سورة فصلت: ٤٦.

(٦) ط، ق: «قد».

(٧) ط: «من».

(٨) ق: «لم يجد».

(٩) ط: «المتخلف».

أسوة بهم، ولن ينفعه هذا التأسى يوم الحسرة شيئاً كما قال تعالى ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (١).

فقطع الله سبحانه انتماعهم بتأسي بعضهم بعضاً (٢) في العذاب؛ فإن مصائب الدنيا إذا عمت صارت منسلاة، وتأسي بعض المصائب ببعض؛ كما قالت الخنساء (٣):

فلولا (٤) كثرة البكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يَبْكُون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنهم بالتأسي
فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشتركين في
العذاب يوم القيامة.

وأما طريقه: فهو بذل الجهد، واستفراغ الوسع، فلن (٥) يُنال
بالعسى، ولا (٦) يُذكر بالهويتنا (٧)، وإنما كما قيل:

(١) سورة الرحرف ٣٩

(٢) ط، ق: «بعض»

(٣) استبان من قصيدة لها في ديوانها (ص ٨٤، ٨٥) وأما لنقلني (٢ / ١٦٣)
وبعضها في الكامن للمبرد (١ / ٢١) ودرر الآداب (٢ / ٩٢٩) والحصان
(٢ / ١٧٥) وشرح المقامات للشريشي (٢ / ١٧٢).

(٤) ط، ق: «فلولا».

(٥) ط: «لا».

(٦) ط: «لن».

(٧) ق: «بالهوى» تحريف.

فَحُصِّنْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَاسْمُ إِلَى الْعُلَا

لَكِي تُدْرِكَ الْعِرَّ الرَّفِيعَ الدَّعَائِمِ

فَلَا خَيْرَ فِي نَفْسٍ تَخَافُ مِنَ الرَّدَى

وَلَا هِمَّةٍ تَضْبُو إِلَى لَوْمٍ لَائِمِ

وَلَا سَبِيلَ إِلَى رُكُوبِ هَذَا الظَّهْرِ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ:

أحدهما: أَنْ لَا يَضْبُو فِي الْحَقِّ إِلَى لَوْمَةٍ^(١) لَائِمَةٍ؛ فَإِنَّ اللُّومَ يُدْرِكُ الْفَارِسَ؛ فَيَضْرَعُهُ عَنْ فَرْسِهِ، وَيَجْعَلُهُ طَرِيحًا^(٢) فِي الْأَرْضِ.

ولثني أَوْ تَهْوُونَ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ؛ فَيَقْدُمُ حِينَئِذٍ وَلَا يَحَافُ الْأَهْوَالَ، فَمَتَى حَافَتِ النَّفْسُ تَأَخَّرَتْ وَأَحْجَمَتْ، وَأَحْلَدَتْ إِلَى الْأَرْضِ.

وَلَا يَسِمُ لَهُ هَذَانِ الْأَمْرَانِ إِلَّا بِالصَّبْرِ؛ فَمَنْ صَبَرَ قَلِيلًا صَارَتْ تِلْكَ الْأَهْوَالُ رِيحًا رَحَاءً فِي حَقِّهِ تَحْمِيلُهُ بِنَفْسِهَا إِلَى مَطْلُوبِهِ، فَيَسِمَا هُوَ يَحَافُ مِنْهَا، إِذْ صَارَتْ أَعْظَمَ أَعْوَانِهِ وَخَدَمِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ دَخَلَ فِيهِ.

وَأَمَّا مَرْكَبُهُ: فَصِدْقُ اللَّجَأِ إِلَى اللَّهِ، وَالانْقِطَاعُ إِلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِ، وَتَحْقِيقُ الْإِفْتِقَارِ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ^(٣) وَجْهِ، وَالضَّرَاعَةُ إِلَيْهِ، وَصِدْقُ

(١) ط: «لوم»

(٢) ط: «صريعاً»

(٣) ط، ق: «كل»

التوكل عليه، والاستعانة به، والانطراح بين يديه كالإناء^(١) استلوم
المكسور الفارغ الذي لا شيء فيه، يتطلع إلى قيمه ووليه أن
يخبره^(٢)، ويستم شعثه، ويمدّه من فضله ويستره، فهذا الذي يُرْحَى
له أن يتولى الله هدايته، وأن يكشف له ما حفي على غيره من صديق
هذه الهجرة، ومنازلها.

فصل

ورأس مال^(٣) الأمر وعموده في ذلك إما هو : دوام التفكير
وتدبر آيات لقرآن^(٤)، بحيث^(٥) يستولي على الفكر، ويشغل
القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وهي
العالية عليه، بحيث يصير إليها مفرّغه وملجؤه، تمكّن حينئذ
الإيمان من قلبه^(٦)، وجلس على كرسيه، وصار له التصرف، وصار
هو الأمر^(٧) المطاع أمره؛ فحينئذ يستقيم له سيره، ويتصح له
الطريق، وتراه ساكنًا وهو يُباري الريح ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ
تَمُزَّزُ السَّحَابُ﴾^(٨).

(١) ط : «انطراح»

(٢) ط : «يجده».

(٣) «مال» ساقط من ط.

(٤) ط، ق : «الله».

(٥) ط، ق : «حيث».

(٦) «وهي العالية... قلبه» ساقطة من ط، ق.

(٧) ط، ق : «الأمير».

(٨) سورة النمل : ٨٨.

فصل

فإن قلت: إنك قد أشرتَ إلى مقام عظيم فافتح لي بابه، واكشف لي حجابَه، وكيف تدبِّر القرآن وتفهمُه^(١) والإشرافُ على عجائبه وكنوزه؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل في البَيِّن غير ما ذكره؟

قلت. سأصرب لك أمثالا تحتدي عليها، وتجعلها إمامًا لك في هذا المقصد.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾ ﴿١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢﴾ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلُهَا فَجَاءَ بِمِثْلِ سَيْمِينَ ﴿٣﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٤﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْحَكِيمُ الْمَلِيعُ﴾ ﴿٥﴾^(٢).

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآيات^(٣)، وتطلعت إلى معناها وتدبرتها؛ فإنما تطلع بها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة أضياف^(٤) يأكلون، وبشروه بعلام عليم، وأن امرأته عَجِثَتْ من ذلك؛ فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك، ولم يجاوز^(٥) تدرك غير ذلك.

(١) ق فهمه.

(٢) سورة النازعات: ٢٤ - ٣٠.

(٣) ط ' الآية.

(٤) ط ' الأضياف.

(٥) ط ' يتجاوز.

فسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من الأسرار^(١).

وكم قد تضمنت من أنواع^(٢) الثناء على إبراهيم؟

وكيف جمعت آداب^(٣) الصيافة وحقوقها؟

وكيف يُراعى الضيف^(٤)؟

وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعتلة

وكيف تضمنت علماً عظيماً من أعلام النبوة^(٥)؟

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال، التي مرّدها^(٦) إلى العلم

والحكمة؟

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بالطف^(٧) إشارة

وأوضحها، ثم أفصحت بوقوعه؟

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم

المكذّبة؟

(١) نهر بعض ما في «الكشاف» (٤/ ٢٩ - ٣٠) وتفسير الروري (٢٨/ ٢١٠ -

٢١٤) و«جلاء الأفهام» للمؤلف (ص ٣٩٤ - ٣٩٧)

(٢) «أنواع» ساقطة من ط.

(٣) «آداب» ساقطة من ط.

(٤) «وكيف يراعى الضيف» ساقطة من ط.

(٥) «وكيف... النبوة» ساقطة من ق.

(٦) ط: «ردّها»

(٧) في الأصل: «الطف».

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما.
وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده، وصديق رسله،
وعلى اليوم الآخر.

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب
الآخرة، وهم المؤمنون بها، وأما من لا يحاف الآخرة ولا يؤمن
بها، فلا ينتفع بتلك الآيات.

واسمع الآن بعض تفاصيل^(١) هذه الجملة:

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ صَبِيحَ إِزْهِيمَ الْمُكَرَّمِ ﴾ ﴿١﴾ افتتح
الله سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد به^(٢)
حقيقته من الاستفهام^(٣) ولهذا قال بعض الناس^(٤): إن «هل» في
مثل هذا الموضع بمعنى «قد» التي تقتضي التحقيق.

ولكن في ورود الكلام في مثل هذا الاستفهام سر لطيف،
ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر مخاطبه^(٥) بأمر عجيب
يسبغي لاعتناء به، وإحضار ذهن له، صَدَّرَ له الكلام بأداة تُسَمَّى^(٦)
سمعه ودهنه للخبر، فتارة يُصَدِّره بـ«ألا»، وتارة يُصَدِّره بـ«هل»،
[فيقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مُدَكِّرًا به، وإما

(١) في الأصل: «تفصيل».

(٢) ط: «بها».

(٣) ط: «حقيقة الاستفهام».

(٤) انظر «تأويل مشكل القرآن» (ص ٥٣٨).

(٥) ط: «المخاطب».

(٦) ط: «بأداة الاستفهام لتنبية».

واعط له محوفاً^(١)، وإما منبهاً على عظمة ما يُخبر به، وإما مقررًا له

فقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى﴾^(٢)، و﴿وَهَلْ أُنَبِّئُكَ سِوَا الْحَاقِمِ﴾^(٣)، و﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْعَنَشَةِ﴾^(٤)، و﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ صَبِإِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾^(٥) متضمن لتعظيم هذه القصص، ولتنبيه على تدبرها، ومعرفة ما تضمنته.

وفيه^(٦) أمر آخر، وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علمٌ من أعلام النبوة؛ فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا أم لم يأتك إلا من قبلك؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه في^(٧) جميع موارد يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: ﴿صَبِإِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾^(٨) متضمن لثنائه على خليله إبراهيم، فإن في «المكرم» قولين^(٨):

(١) سقط من الأصل.

(٢) سورة البازعات: ١٥.

(٣) سورة ص: ٢١.

(٤) سورة العنكبوت: ١.

(٥) سورة النازعات: ٢٤.

(٦) ط: «فيه»

(٧) ط: «من»

(٨) في الأصل: «قولان».

أحدهما إكرام إبراهيم لهم؛ ففيه مدح^(١) بإكرام الضيف
والثاني. أنهم مكرمون عند الله؛ كقوله. ﴿لَّ عِبَادٌ
مُّكْرَمُونَ﴾^(٢)، وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه؛ إذ
جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له.

فعى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ متضمن لمدح^(٣) آخر
لإبراهيم حيث ردّ عليهم أحسن مما حيّوه به؛ فإن تحيتهم باسم
منصوب متضمن لجملة فعلية، تقديره: سلّمنا عليك سلاماً، وتحية
إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية، تقديره: سلامٌ ثابت
أو دائم أو مستقرّ عليكم ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي
اثبات وال لزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحية
إبراهيم أكمل وأحسن^(٤).

ثم قال: ﴿قَوْمٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وفي هذا من حُسن محاطة
الضيف والتذمّم به^(٥) وجهان من المدح:

(١) ط: «مدح إبراهيم».

(٢) سورة الأنبياء: ٢٦.

(٣) ط: «المدح».

(٤) انظر «التيان في علم لبيد» لأبي الرملكابي (ص ٥٠-٥١). وردّ عليه أبو
المطرف أحمد بن عميرة في «التسيّات على ما في التيان من التمويهات»
(ص ٦٦-٦٧)، ولم يُسلم بهذا الفرق.

(٥) ط: «به».

أحدهما أنه حذف المبتدأ، والتقدير أنتم مكرون، فتدغم منهم، ولم يُواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش، بل قال: ﴿قَوْمٌ مُّكْرُونَ﴾^(١)، ولا ريب أن حذف المبتدأ في هذا من محاسن الخطاب^(٢)، وكان النبي ﷺ لا يُواجه أحداً بما يكرهه، بل يقول «ما بال أقوام يقولون كذا، ويفعلون كذا»^(٣).

والثاني قوله ﴿قَوْمٌ مُّكْرُونَ﴾، فحذف فاعل الإنكار، وهو الذي كان أكرههم، كما قال تعالى في موضع آخر ﴿نَكِرَهُمْ﴾^(٤)، ولا ريب أن قوله: ﴿مُكْرُونَ﴾: اللفظ من أن يقول: أكرتكم

وقوله: ﴿قَرَأَ إِلَيْكَ آيَاتِهِ﴾، فجاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿فَقَرَّهَ﴾ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿متصمناً وحرماً من المدح، وآداب الصيافة، وإكرام الضيف:

منها: قوله ﴿قَرَأَ إِلَيْكَ آيَاتِهِ﴾، والروغانُ: الذهب في سرعة^(٥) واحتفاء، وهو يتصمن المادرة إلى إكرام الصيف، والاحتفاء ترك

(١) «بل قال... الخطاب» ملاحظة من ط.

(٢) وردت أحاديث كثيرة بهذا الأسلوب، مثل قوله ﷺ «ما بال أقوام يرفعون أصداهم إلى السماء في صلاتهم؟» أخرجه البخاري (٧٥٠) عن أنس وقوله «ما بال أقوام يرفعون عن الشيء أصبعه؟» أخرجه البخاري (٦١٠١، ٧٣٠١) ومسلم (٢٣٥٦) عن عائشة.

(٣) ط: «سرعة»

(٤) ط: «يعرض».

تحجيه وألا يُعرضه^(١) للحياء، وهذا بخلاف من يشاقل، يتبارد على ضيفه، ثم يبرر بمرأى منه، ويحلُّ صُرَّةَ الفقة، ويرنُّ ما يأخذ، ويشاؤون الإناء بمرأى منه، ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الصيف وحياءه، فلفظة «راغ» تنمي هذين الأمرين

وفي قوله: ﴿إِلَيْكَ أَهْلِي﴾ مدح آخر، لما فيه من الإشعار بأن كرامة الصيف مُعَدَّةٌ حاصلةٌ عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من حيرانه، ولا يذهب إلى غير أهله، إذ تُرْلُ^(٢) الصيف حاصل عندهم

وقوله: ﴿فَجَاءَ يَعْجَلُ سَمِيٍّ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح أحدها: خدمة ضيفه بنفسه، فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه^(٣).

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه؛ ليتخيروا من أطايب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمير ليس بمهرول، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقرة السمين، فإنهم يُعَجَّبون به، فمن كرمه هان عليه دَنُحُه وإحضارُه.

(١) ص، ق «فري»

(٢) في الأصل: «نفسه».

(٣) ط: «أطاب أخرى».

وقوله: ﴿لِيَهُمْ﴾ متضمنٌ لمدحٍ وأدبٍ آخر^(١)، وهو إحضار الطعام إلى بين أيدي^(٢) الصيف، بخلاف من يُهَيِّئُ الطعامَ في موضع، ثم يُقيم ضيفه؛ فيُورِدهُ عليه.

وقوله: ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فيه مدحٌ وأدب آخر^(٣)؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وهذه صيغة عرصٍ مؤدبة بالتلطف، بخلاف من يقول: صعدوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿فَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمّر منهم خوفاً أن يكون منهم^(٤) شر؛ فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك ﴿قَالُوا لَا تَهَفْ عَلَىٰ سُرُورِهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عَجَبَتْ من ذلك، وقالت: عجوزٌ عقيمٌ لا يُولَدُ لمشي، فأنى [لي]^(٥) بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سُرِّيته هاجر، وكان بكره وأول ولده، وقد بين سبحانه في سورة هود^(٦) في قوله تعالى: ﴿فَشَرَبْنَاهَا إِيسَاقَ وَهَارُونَ وَزَكَرِيَّا إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ في هذه

(١) ط: «أيدي»

(٢) ط: «آداب آخر».

(٣) ط: «معهم»

(٤) من ط، ق.

(٥) الآية: ٧١.

(٦) ط: «وصكت».

القصة نفسها.

وقوله: ﴿فَأَقَلَّتْ أَمْرَانِي فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾؛ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى التذبة وصك^(١) الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال، واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفَت المستدأ، فلم تقل: أما عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة، لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم، وصرحت بالتعجب^(٢).

وقوله: ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا﴾ متضمن لإثبات صفة القول [له]^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدرُ الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادرٌ عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متصمانان لجميع الكمال، فالعلم يتضمن

(١) ط، ق: «بالعجب».

(٢) من ط

(٣) من ط، ق.

الحياة ولوازم كمالها من القومية، [والقدرة]^(١)، والبقاء، والسمع، والبصر، ومائر الصفات التي يستلزمها العلم التام

ولحكمة تتضمن كمال الإرادة، من^(٢) العدل، والرحمة، والإحسان، والجود، والبر، ووضع الأشياء مواضعها على أحسن وحوها، وتتضمن إرسال الرسل، وإثبات الثواب والعقاب

كأن هذا يُعلم^(٣) من اسمه «الحكيم»، كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المضائق العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثاً أو سُدىً أو باطلاً. ففسر^(٤) حكمته تتضمن الشرع والقدر، والثواب والعقاب، ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يُعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدرك العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها على ذلك، وأن الله سبحانه يضرب بهم الأمثال المعقولة التي تدلُّ على إمكان المعاد تارةً ووقوعه أخرى، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المقدور^(٥)، وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مُغنيةً - بحمد

(١) ط، ق، او.

(٢) ط: «العلم».

(٣) ط: «فحيث صفة».

(٤) ط، ق: «المعاد».

(٥) ط: «الإنصاف».

الله ومبته على عباده - عن غيرها، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة، متصمة للحواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس

وإن ساعد التوفيق من الله كتبت في ذلك سفرًا كبيرًا، لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء، والهدى، وسرعة الإيصال^(١)، وحسن البيان، والتسبيح على مواضع الشبه والجواب عنها بما يثلج له الصدر؛ ويشرق^(٢) معه اليقين، بحلاف غيره من الأدلة، فإنها على العكس من ذلك، وليس هذا موضع التفصيل^(٣).

ولمقصود أن مصدر الأشياء خلقًا وأمرًا^(٤) عن علم الرب وحكمته.

واختصت هذه القصة [مذكر]^(٥) هذين الاسمين لاقتضائهما لهما^(٦)؛ لتعجب المفسر من تولد مولود بين أبوين لا يُولد بمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة قنضت جريان هذه الولادة على [غير]^(٧) العادة المعروفة؛ فذكر في الآية

(١) ط، ق: «يكثر».

(٢) ذكر المؤلف بعض هذه الأدلة وتكلم عليها في «علام الموقعين» (١) / ١٣٨ - ١٤٨

(٣) ط، ق: «مصدر الخلق والأمر».

(٤) من ط، ق.

(٥) ط: «لاقتضائهما».

(٦) من ط، ق.

(٧) ط: «الهلاك».

اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وعأيته، وحكمته في وضعه موضعه من غير إحلال بموجب لحكمة.

ثم ذكر سبحانه قصة الملائكة في إرسالهم لإهلاك^(١) قوم لوط، وإرسال الحجارة المسومة عليهم، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب؛ لوقوعه عياناً في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله وصحة^(٢) ما أخبروا به عن ربهم.

ثم قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَأَوَّحْنَا فِيهَا عِزِّيَّتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣)، ففرق بين الإسلام والإيمان ههنا لرسالة قصصه الكلام؛ من الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسول ظاهراً وباطناً.

وقوله ﴿فَأَوَّحْنَا فِيهَا عِزِّيَّتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿لَمَّا كَانَ الْمَوْجُودُونَ﴾^(٤) من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت، وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناحين. وقد أخبر الله سبحانه عن خيانة امرأة لوط،

(١) : «الصححة»

(٢) سورة الداريات : ٣٥-٣٦

(٣) في الأصل «الموجودين»

(٤) في الأصل «الوجه»

وخيانتها أنها كانت نذل قومها^(١) على أضيافه وقلبيها معهم، وليست خيانة فحشية، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وُصِفَ دلالات^(٢) القرآن وألفاظه مواضعها، تبيّن له من أسرارهِ وحِكْمِهِ ما يَهْرُ^(٣) العقول، ويعلم معه تنزُّله^(٤) من حكيم حميد.

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور، وهو أن الإسلام أعمُّ من الإيمان، فكيف استثنى^(٥) الأعمُّ من الأحصُّ، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس؟

وتبيّن أن المسلمين مُستثنى^(٦) مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنى^(٧) منهم، بل هم المُخْرَجُونَ النَاحُونَ^(٨) وقوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٩).

(١) ط ق «دلالة»

(٢) ح ق «يهر»

(٣) ح «أه نزيل».

(٤) ح «استثناء»

(٥) كذا في لأصل بالياء، وفي ط، ق «المستثنى»

(٦) ط «مه».

(٧) «نصر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية على الأئمة بنحو ما ها في كتاب «الإيمان الأوسط» ص ٧٣-٧٤ (٧/ ٤٧٣-٤٧٤)

(٨) سورة الداريات: ٣٧.

(٩) سورة هود: ١٠٣.

فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله، إما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله؛ كما قال تعالى في موضع آخر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن حَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾^(٢)

فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا زال الدهر فيه الشقاء^(٣) والسعادة، وأما من آمن بالآخرة واشفق منها، فهو الذي يستفيع بالآيات والمواعظ والمقصود بهذا إنما هو التمثيل والتنبيه^(٤) على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن، واستنباط أسرارها، وإثارة^(٥) كوره، واعتبر بهذا غيره، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

فصل

والمقصود أن القلب لما تحوّل لهذا السفر طلب رفيقاً يأنس به في السفر، فلم يجد^(٦) إلا معارضا مناقضا، أو لائما بالتأنيب

(١) سورة الأعلى: ١٠.

(٢) ط: «الشقاوة»

(٣) ط: «التنبيه والتمثيل».

(٤) ط: «إثارة»

(٥) ط: «فلا يجد»

(٦) «ومعرضا» ساقط من ط

مُصَرِّحًا ومُعَرِّصًا^(١)، أو فارغًا عن هذه الحركة مُعَرِّصًا، وليت الكلّ كانوا^(٢) هكذا، فلقد أحسن إليك من خلّاك وطريقك ولم يُطرح شرّهُ عليك؛ كما قال القائل:

إنّا لفي دَمَنٍ تَرَكُ المسيحُ به من أكثر الناسِ إحسانً وبجماً^(٣)

وإذا كان هذا المعروف من الناس، فالمطلوب في هذا الزمان، المعاونة على هذا السمر بالإعراض، وترك اللائمة والاعتراض، إلا ما عسى أن يقع نادرًا فيكون غيمةً باردة لا قيمة لها.

ويسعى^(٤) أن لا يتوقف العبدُ في سبيله على هذه العيمة، بل يسير ولو وحيدًا عريثًا، فانهراذ العبد في طريق طلبه دليلٌ على صدق المحبة.

ومن نظر في هذه الكلمات التي تضمنتها هذه الورقة^(٥)، عيّم أنها من أهم ما يحصل به التعاون على البر والتقوى، وسمر الهجرة إلى الله ورسوله، وهذا^(٦) الذي قصد مُسَطَّرها^(٧) بكتابتها، وجعلها

(١) ط، ق: «كل ما ترى»

(٢) البيت للمتنبي في ديوانه (ص ٧١١ شرح النواحيدي)

(٣) ط «ولا يسعى»

(٤) ط: «الورقات»، ق: «الورقة»

(٥) ط، ق «وهو»

(٦) ط: «سطرها»

(٧) ط: «توافي أحثًا»

هديته لمعجّلة السابقة إلى أصحابه ورفقائه في طلب العلم وأشهد الله - وكفى بالله شهيداً - لو توافيه من أحد^(١) منهم لقاءها بالقول، ولبادر إلى تفهّمها وتدبرها^(٢)، وعدّها من أفضل ما أهدى صاحب إلى صاحبه، فإن غير هذا من مآجريات الركب الحبريّة، - وإن تطلعت [النصوص]^(٣) إليها - ففائدتها قليلة، وهي في غاية الرّحص لكثرة جالبيها، وإنما الهدية النافعة كلمة من الحكمة^(٤) يهديها الرجل إلى أخيه المسلم.

ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين في الناس أموات، فإنهم يقطعون [عليه]^(٥) طريقه، فليس لهذا لسالك أنفع من تلك المرافقة، وأوفق له من هذه المرافقة، فقد قال بعض من سلف^(٦) «شأن بين أقوام موتى تخيا القلوب ذكرهم، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم»

فما على العبد أصرّ من عُشْرانته^(٧) وأساء جنسه، فإن نظره^(٨)

(١) «ارتدبرها» ساقطة من ط.

(٢) زيادة من ط، ق.

(٣) «من الحكمة» ساقطة من ط.

(٤) من ط، ق

(٥) ط «بعض السلف»

(٦) ط. «عشْرته»

(٧) ط «نظره»

(٨) ح، ق. «أبى»

قاصر، وهِمَّتُهُ واقعةٌ عند التشبيهِ بهم ومباهاتهم والسلوكِ أَيْةٌ^(١) سَكُوا، حتى لو دَخَلُوا جُحَرَ صَبَّ لأَحَبُّ أنْ يَدْخُلَ^(٢) معهم.

فمَتَى تَرَقَّتِ^(٣) هِمَّتُهُ من^(٤) صحبتهم إلى صُخْبَةٍ مَن أَشْبَحُهم مفقودةٌ، ومحاسنُهم وآثارُهم الجميلةُ في العالم مشهودةٌ^(٥)، استحدثتْ بذلك همةً أخرى وعملاً آخر، وصارَ بين الناس غريباً، وإن كان فيهم [مشهوراً و]^(٦) نسيباً، ولكنه غريبٌ محبوبٌ يَرَى ما الناسُ فيه، وهم^(٧) لا يرون ما هو فيه، يُقَيِّمُ لهم المعاذيرَ ما استطاعَ، ويصَحِّحُهم^(٨) بجهدِهِ وطاقته، سائرًا فيهم بعينين.

عين ناظرة إلى الأمر والسهي؛ بها يأمرهم وينهاهم، ويواليهم ويعاديهم، ويؤدي إليهم^(٩) الحقوق، ويستوفيها عليهم.

وعين ناظرة إلى القضاء والقدر، بها يَرْحَمُهم ويدعو لهم ويستغفر لهم، ويلتمسُ لهم وجوه المعاذير فيما لا^(١٠) يُجِلُّ بأمرٍ

(١) ط، ق: «يدخله».

(٢) ط: «صرف».

(٣) ط: «عن».

(٤) ط، ق: «موجودة».

(٥) من ط

(٦) «هم» ساقطة من ط

(٧) ط: «يحصيهم».

(٨) ط: «لهم»

(٩) في الأصل «لم»

(١٠) سورة الأعراف: ١٩٩

ولا يعود بقض شرع، قد وَسَّعَتْهُمْ بِسَطْنَهُ وَرَحْمَتَهُ وَلِيَهُ وَمَعْذَرَتَهُ،
وَأَقْصَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْعِهْلِيكِ﴾ (١)، متديراً لما تضمنته هذه الآية من حسن
المعاشرة مع الخلق، وأداء حق الله فيهم، والسلامة من شرهم. فلو
أحد الناس كلهم بهذه الآية لكفَّتْهُمْ وَشَقَّتْهُمْ؛ فإن العفو ما عفا من
أخلاقهم، وَسَمَخَتْ بِهِ طَائِعَهُمْ، وَوَسَّعَتْهُمْ (٢) بدله من أموالهم
وأخلاقهم؛ فهذا ما منهم إليه.

وأما ما يكون منه إليهم؛ فأمرهم بالمعروف، وهو ما تشهد به
العقول وتعرف حسنه، وهو ما أمر الله به.

وأما ما يتقضي به أدى جاهلهم؛ فالإعراض عنهم (٣)، وترك الانتقام
لنفسه والانتصار لها.

فأي كمال للعبد وراء هذا؟

وأي معشرة وسياسة للعالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة؟
ولو فكر الرجل في كل شر يلحقه من العالم - أعني الشر
الحقيقي الذي لا يوجب له الرفعة والرقي من الله - وَجَدَ سَبَبَهُ
الإخلال بهذه الثلاث أو ببعضها (٤)، وإلا فمع القيام بها، فكل ما

(١) في الأصل: «ووسعه»

(٢) ط «عه».

(٣) ط: «بعضها»

(٤) «كان» ساقطة من ط.

يُخْصَلُ لَهُ مِنَ النَّاسِ هُوَ خَيْرٌ لَهُ وَإِنْ كَانَ^(١) شَرًّا فِي الظَّاهِرِ، فَإِنَّهُ مَتَوَلِّدٌ^(٢) مِنَ الْقِيَامِ^(٣) بِالْأَمْرِ [بِالْمَعْرُوفِ]^(٤)، وَلَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ إِلَّا خَيْرٌ وَإِنْ وَرَدَ فِي حَالَةٍ شَرٍّ وَأَذَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآيَاتِكَ عَصِيبَةٌ مِّنْكَ لَا تَخْصَمُهُمْ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾^(٥)، وَقَدْ تَعَالَى سَبِيهِ ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٦).

وقد تصممت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق خلقه؛ فمنهم إِمَّا أَنْ يُسَيِّئُوا فِي حَقِّ اللَّهِ أَوْ فِي حَقِّ رَسُولِهِ؛ فَإِنْ أَسَاءُوا فِي حَقِّكَ فَقَابِلْ ذَلِكَ بِعَفْوِكَ عَنْهُمْ، وَإِنْ أَسَاءُوا فِي حَقِّي فَاَسْأَلِي أَعْفُزُ بِهِمْ وَأَسْتَجْلِبُ قُلُوبَهُمْ، وَأَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الرَّأْيِ بِمَشُورَتِهِمْ، فَإِنْ ذَلِكْ أُخْرَى فِي اسْتِجْلَابِ طَاعَتِهِمْ وَبِذْلِهِمْ^(٧) الصَّيْحَةَ، فَإِذَا عَزَمْتُ عَلَى أَمْرٍ^(٨) فَلَا اسْتِشَارَةَ بَعْدَ ذَلِكَ، بَلْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ^(٩)، وَانْصَرْتُ لِمَا عَزَمْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ^(١٠)؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُجِثُّ الْمُتَوَكِّلِينَ

(١) ط، ق، هـ، ي، نو، د.

(٢) «القيام» ساقطة من ط.

(٣) من ط.

(٤) سورة النور: ١١

(٥) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٦) ط «بدل»

(٧) «على أمر» ساقطة من ط.

(٨) «على الله» ساقطة من ط.

(٩) في الأصل «أمر».

(١٠) من ط، ق

فهذه وأمثاله [من الأخلاق] ^(١) التي أَدَّبَ اللهُ بها رسوله، وقال فيه ﴿وَلَيْكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٌ﴾ ^(٢) قالت عائشة رضي الله عنها: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» ^(٣).

وهذه لا تَبِمُ ^(٤) إلا بثلاثة أشياء:

أحدها. أن يكون العُودُ طيبًا، فأما إذا ^(٥) كانت الطبيعة جافية غليظة يابسة عُسْرَ عليها مزاولة ذلك علمًا وإرادة وعملاً، بخلاف الطبيعة المفقادة للَّيَّةِ السَّليْسَةِ الْقِيَادِ، فإنها مستعدةٌ إما تُريدُ الحرثَ والذرَّ.

الثاني. أن تكون النفس قويةً غالبةً قاهرةً لدَوَائِعِي الْعطَالَةِ والغَيِّ والهوى، فإن هذه أعداءُ الكمالِ، فإن لم تَقْوِ النفسُ على قهرها وإلا لم تَزَلْ مغلوبةً مقهورةً.

الثالث: علمٌ شافٍ بحقائق الأشياء، وتنزيلها ^(٦) منازلها، يميزُ به بين الشَّخْمِ والوَرَمِ، والزحاجة والجوهرة.

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨) من طريق يزيد بن بابوس عنها وأخرجه أحمد (٦/ ٩١، ١١٢، ١١١، ١٨٨) ومسلم (٧٤٦) وابن ماجة (٢٣٣٣) من طرق أخرى عنها

(٣) ط، ق: «وهذا لا يتم»

(٤) ط: «إن»

(٥) «على نهرها... تنزيلها» ساقطة من ق.

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاثة^(١)، وسأعده التوفيق فهو من القسم الذين^(٢) سَقَتْ لهم من ربهم الحُسْنَى، وتَمَّتْ لهم العُدَّة وهؤلاء هم القسم الأول المذكورون في قول النبي ﷺ «مَنْ لَمْ يَمُتْ مَا مَعْنَى اللَّهِ مِنْهُ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ الْحَدِيثِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ

فصل

ثم ذكر الشيخ - رضي الله عنه وأرضاه - أخبار الرُّكْبِ وأشياء، إلى أن قال: هدا، وأول الأمر وآخره: إما هو معاملة الله وحده، والانقطاع إليه بِكُلِّيَّةِ القلب، ودوام الافتقار إليه، فلو وَفَّى العبدُ هذا المقامَ حقَّه لرأى المحبَّ العجيب من فضل ربِّه وبرِّه ولطفه ودفاعه عنه، والإقبال بقلوب عباده إليه، وإسكان الرحمة ولحمته له في قلوبهم، ولكن يقول: رَبُّنَا غَلَبَ عَلَيْنَا لَوْمُنَا، وجهلنا وظلمنا وإساءتنا من أدلِّ شيء منه، فها نحن مُقَرَّوْنَ بالتفريط والتقصير، وَمَنْ ادَّعَى مِنَّا عِنْدَكَ وَجَاهَةً فَلَيْسَ إِلَّا ذَلِيلٌ حَقِيرٌ، فإن تَكَبُّ إلى أَنْفُسِنَا تَكَلُّمًا إِلَى ضَيْعَةٍ وَعِجْزٌ وَذَنْبٌ وَحَطِيئَةٌ؛ فَوَا حَسْرَتَاهُ وَوَا أَسْمَاهُ عَلَى رِضَاكَ! وَلَوْ عَضِبَ كُلُّ أَحَدٍ سِوَاكَ، وَعَلَى إِشَارِ طَعْنِكَ وَمَحَبَّتِكَ عَلَى مَا سِوَاهُمَا، وَعَلَى صِدْقِ الْمَعَامَلَةِ مَعَكَ.

فَلَيْتَكَ تَخْلُوَ وَالْحَيَاةُ مُرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ عَصَابٌ

(١) ط: «الثلاث».

(٢) ط: «هو القسم الذي»

وليت الذي بيبي وبينك عامرٌ وبينني وبين العالمين حرابٌ
إذا صَحَّ مَكَ الوُدُّ فأنكَلُ هَيِّنٌ وكلُّ الذي فوق شراب تَرَبٌ^(١)

وقد كان يُعني من كثير من هذا التطويل ثلاث كلمات كان يكتب بها بعضُ السلف إلى بعض، فلو نَقَشَهَا العبدُ في لوح قلبه يقرؤها على عدد الأعماس لكان ذلك بعض ما يستحقه، وهي: «مَنْ أَصْلَحَ سِرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ عِلَانِيَتَهُ، وَمَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ عَمِلَ لِآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ مَوْؤُنَةَ دُنْيَاهُ»

وهذه الكلمات برهائها وجودها، وَلِمَيَّهَا إِنِّيْهَا، والتوفيق بيد الله، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

ثم قال رضي الله عنه وأرضاه. وليعذر الأصحاب في هذه الكلمات؛ فإنها والله ثَمَّةٌ مصدورة، وتَقَسُّ مَخْرُورٌ

أَفَلْبُ صَرَفِي لَا أَرَى مَنْ أَحَبَّهُ وفي الحَيِّ مِمَّنْ لَا أَحِبُّ كَثِيرٌ
فهو نفسُ مَنْ قد أكل بعضه بعضاً، فهو الممتدأ والحر، ومنه الغناء ومنه الطرب.

مَا فِي الْخِيَامِ أَخُو وَجْدٍ يُطَارِحُهُ حديث ليلي وَلَا صَبَّ يُجَارِيهِ
فَأَحَبُّ مُجِبِّكُمْ مَطَارِحَةً مِنْ تَعُدَّتْ عِنْدَهُ دِيَارُهُ، وَشَطَطُ عَمِّ مَزَارُهُ؛
فهو كما قيل:

() الأول من قصيدة طويلة لأبي فراس الحمداني في ديوانه (١ / ٢٤) وليست ثلاث صمغ قصيدة للمثنوي (ص ٦٨٧ شرح الواحدي).

يا ثاوي بين الخوانج والخشا [مِثِّي] وإن بُعِثْتُ عَلَيَّ دِيَارُهُ
عظماً على قلبٍ يُحِبُّكَ هَائِمٌ إن لم تَصِلْهُ تَقَطَّعَتْ أَعْشَرُهُ
وارْحَمْ كَثِيباً فِيكَ يَقْصِي نَجْبَهُ أَسَفاً عَلَيْكَ وَمَا انْقَضَتْ أَوْطَارُهُ
لا يَسْتَمِيقُ مِنَ الْعَرَامِ وَكَلِّمَا نَحْوُكَ عَنْهُ تَهْتَكُتْ أَمْتَارُهُ^(١)
وكلُّ ذي شَجْوٍ يَصْرِفُ هَذَا وَأَمثالَهُ إِلَى شَجْوِهِ، وَهَذَا مِمَّا يَسْتَرْوَحُ
بِهِ الْمَكْرُوبُ بِعَصْرِ الْأَسْتَرْوَاحِ، وَهِيَ هَاتِ هِيَهَاتِ إِنْ الْقَلْبُ لَنْ يَقَرَّ
لَهُ قَرَارٌ حَتَّى يُوَضَعَ فِي مَوْضِعِهِ، وَيَسْتَقَرَّ فِي مُسْتَقَرِّهِ الَّذِي لَا مَقَرَّ لَهُ
سِوَاهُ، كَمَا قِيلَ:

إِذَا مَا وَضَعْتَ الْقَلْبَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ بِغَيْرِ إِبَاءٍ فَهُوَ قَسْبٌ مُضَيِّعٌ
وَتَحْتَ هَذَا الْبَيْتِ مَعْنَى شَرِيفٌ جَدًّا؛ قَدْ شَرَحْتُهُ فِي كِرَاسِيَةِ
مَعْرَدَةِ^(٢)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هَذَا آخِرُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ فِي هَذَا السَّابِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

تَمَّتْ

(١) الأبيات من قصيدة للصرصري في «هوات الوفيات» (٤ / ٣٠١) وأورد
المؤلف ثلاثة منها في «روضة المحبين» (ص ٢١)
(٢) وانظر كلام شيخ الإسلام بن بركة عليه في «مجموع الفتاوى» (٩ / ٣١٦ - ٣١٩)

الفهارس

٩٧	* فهرس الآيات
١٠١	* فهرس الأحاديث
١٠٢	* فهرس الشعر
١٠٤	* فهرس الأعلام
١٠٥	* فهرس الفوائد العلمية
١٠٥	- التفسير وعموم القرآن
١٠٦	- الحديث
١٠٦	- النسخة والنحو
١٠٧	- فوائد متفرقة
١٠٩	* فهرس الموضوعات

فهرس الآيات

- ٥٤ ﴿وَالْعَكْفِرِ كَذَابٍ إِلَهُ﴾ [البقرة / ١٠٤]
- ٥٦ ﴿إِذْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسُوا مَا كُنُوا عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة / ١٦٦ - ١٦٧]
- ٧ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٧٧]
- ٤٣ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة / ١٨٣]
- ١٣ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا﴾ [البقرة / ١٨٧]
- ١٣ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا﴾ [البقرة / ٢٢٩]
- ٨٩ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٥٩]
- ٤٢ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٥٩]
- ٢٥ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٦٥]
- ٣٣ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٦٥]
- ٤٣ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٦٥]
- ٤ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٦٥]
- ٣٥ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٦٥]
- ٤٦ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٦٥]
- ٥١ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٦٥]
- ٥٣ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِيهَا كُفَرُوا﴾ [البقرة / ١٦٥]

- ﴿ خُذْ لَعْنُوا أُمَّةً يَلُوكَ وَالْعَرَفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف / ١٩٩] ٨٨
- ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيُنصِرَ بَيْتِنَا مِمَّنْ نَبْنِئُ ﴾ [الأعراف / ١٤٢] ٤٧
- ﴿ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة / ٥٢] ٢٢
- ﴿ وَالشَّيْثَانُ الْوَلِيُّ مِنَ الْمُشْكِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ [التوبة / ١١٠] ٥٩
- ﴿ فَسَرَّهَا يَأْسُحَقْ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴾ [هود / ٧١] ٧٨
- ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [هود / ١٠٣] ٨٤
- ﴿ أَسْرَدَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا ﴾ [الرعد / ١٧] ٦٢
- ﴿ أَلَيْسَ كَقَوْمٍ زَكَّوْا وَصَدُّوا عَمَّ سَبِيلِ اللَّهِ يَدْنُهُمْ عَذَابٌ ﴾ [الشعر / ٨٨] ٥٤
- ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ [الكهف / ١٧] ٥٠
- ﴿ مَلِكٌ عِندَ مَنكُم مَّوَكَّاتٌ ﴾ [الأنبياء / ٢٦] ٧٥
- ﴿ قُلْ رَبِّ أَنْصُرْ بِالْحَقِّ وَدَمًا الرَّحْمَنُ ﴾ [الأنبياء / ١١٢] ٢٢
- ﴿ إِنَّ لَدَيْنَ جَاءُوا بِالْإِيمَانِ غَضَبٌ يَنْصُرُ ﴾ [البقرة / ١١] ٨٩
- ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [البقرة / ٥١] ٤٠
- ﴿ وَقَدَرْنَا إِنَّا مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْأَةً مَّشُورًا ﴾ [الفرقان / ٢٣] ٥٩
- ﴿ يَتَّبِعُنِي أَنصُرْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان / ٢٧] ٦٦
- ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان / ٢٧ - ٢٩] ٥١
- ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ [الزلزال / ٨٨] ٧٠

- ﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَمْسِهِمْ﴾ [الأحزاب / ٦] ٣١
- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ [الأحزاب / ٣٦] ٣٩
- ﴿يَوْمَ تُغْلَبُ وَجُوهُهُمْ فِي أَسَارٍ﴾ [الأحزاب / ٦٦ - ٦٨] ٥٢
- ﴿وَهَٰذَا نَسُفُ بَنِي الْعَقِصِ﴾ [مر / ٢١] ٧٤
- ﴿وَمَارِئَكَ بِطَلْعِ الْبَيْدِ﴾ [صافات / ٤٦] ٦٧
- ﴿الْأَحْيَاءُ يَوْمَئِذٍ يَقُولُ لِمَ كُنَّا بِلِقَاءِ رَبِّنَا عُذُورٌ﴾ [الرحمن / ٦٧] ٥٢
- ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا أَفْلَ لَمْ تَأْمُرُوا وَلَكُمْ قَوْلُوا لَمْ يَأْمُرُوا﴾ [الحجرات / ١٤] ٧
- ﴿هَٰذَا نَسُفُ بَنِي الْعَقِصِ﴾ [الدريات / ٢٤ - ٣٠] ٧١
- ﴿فَأَخْرَجَ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الدريات / ٣٥ - ٣٦] ٨٢
- ﴿وَرَزَّكَ فِيهَا ءَايَةُ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الدريات / ٣٧] ٨٣
- ﴿فَقَرُّوا بِأَنَّهُ﴾ [الدريات / ٥٠] ١٦
- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِي﴾ [الطور / ٢١] ٦٥
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم / ٤] ٢٣
- ﴿فَلَا أُفْسِدُ بِمَوْجِ الْخَوْرِ﴾ [الواقعة / ٧٥ - ٧٧] ٢٩
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة / ٢ - ٤] ٦٠
- ﴿الَّذِينَ حَمَلُوا النُّورَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة / ٥] ٦١
- ﴿كَاتِبًا تَبَيَّنَ ءَأَمْرًا إِذْ تُدْعَىٰ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة / ٩] ٤٣

- ﴿ وَرَبُّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [الفلم / ٤] ٩٠
- ﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [القيامة / ٦ - ٤] ٣٠
- ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة / ١٤ - ١٥] ٢٦
- ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ [الاعراف / ١٥] ١٤
- ﴿ لَا أَقِيمُ بِالْخَيْسِ ﴾ [التكوير / ١٥ - ١٩] ٣٠
- ﴿ سَيَذَرُكَ مَنْ يَخْشَى ﴾ [الأعلى / ١٠] ٨٤
- ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْعِيسَى ﴾ [الحاقة / ١١] ٧٤

فهرس الأحاديث

٦	النواس بن سمعان	«جئت تسأل عن البر والإثم»
٤٤	ابن عمر	«على المرء السمع والطاعة...»
٦٣	زيد بن ثابت	«قرباً حامل فقه إلى من هو أفقه منه»
٩٠	عائشة	«كان خلقه القرآن»
٧٦	-	«ما بال أقوام يقولون كذا»
٦١	أبو موسى الأشعري	«مثل ما بعثني الله به من الهدى...»
٩	أبو هريرة	«من صام رمضان إيماناً واحتساباً...»
٩	أبو هريرة	«من قم ليلة القدر إيماناً واحتساباً...»
١٩	عبدالله بن عمرو	«المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»
١٧	عائشة	«وأعوذ بك منك»
١٧	البراء بن عازب	«لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»
٤٤	المقدام بن معديكرب	«يوشك رجل شبعان متكى...»

فهرس الشعر

الصفحة	القائل	البحر	القافية
٢٩	مسلم بن معد	وافر	دواء
٢٣	جميل	طويل	قريب
٩٢	أبوفراس الحمداني	طويل	عصب
٢٩	امرؤ القيس	متقارب	أفر
٩٢	-	طويل	كثير
٢٦	-	طويل	السرثر
٩٣	الصرصري	كامل	دياره
٦٨	الخنساء	وافر	نفسى
٩٣	-	طويل	مضيئ
٥٨	-	بسيط	مقطع
٢٧	-	وافر	بدكا
٨٥	المتنبى	بسيط	إجمال
٥٨	أبو تمام	كامل	الأول
٢٢	-	منسرح	بدما

٣	ابن القيم	طويل	فَسَلِّمُوا
٦٩	-	طويل	الدَّعَائِمِ
٥٠	-	طويل	عَيَّالًا
٩٢	-	بسيط	يَجَارِيهِ

فهرس الأعلام

٧٩، ٧١	إبراهيم عليه السلام
٤٥	أحمد بن حنبل
٧٨	إسحاق عليه السلام
٧٨	إسماعيل عليه السلام
٤١	البحاري
٢٨	أبو بكر الصديق
٤١	الرهري
٤٠	الشافعي
٨	طلق بن حبيب
١٥	عبدالقادر الجيلاني
٢٥	قتادة
٨٢	لوط عليه السلام
٧٤	موسى عليه السلام
٦	النواس بن سمعان
٧٨	هاجر
٧٨	يعقوب عليه السلام

فهرس الفوائد العلمية

*التفسير وعلوم القرآن

٧	خصال البر في القرآن
١٩	لاقتراان بين الإيمان والمهجرة في القرآن
٥٦	تفسير الآيتين ١٦٦ - ١٦٧ من سورة البقرة
٨٩	تفسير الآية ١٥٩ من سورة آل عمران
٤٢	تفسير الآية ٥٩ من سورة النساء
٢٥	تفسير الآية ٦٥ من سورة النساء
٣٣	تفسير الآية ١٣٥ من سورة النساء
٤	تفسير الآية الثانية من سورة المائدة
٥٣	تفسير الآيات ٣٧ - ٣٩ من سورة الأعراف
٥٩	تفسير الآية ١٠٠ من سورة التوبة
٤٠	تفسير الآية ٥٤ من سورة النور
	تفسير الآيات ٢٤ - ٣٠ من سورة الذاريات وبيان
٧١	ما تضمنت من الأسرار
٦٥	تفسير الآية ٢١ من سورة الطور
٦٠	تفسير الآيات ٢ - ٤ من سورة الجمعة

* الحديث

- ١٦ الهجرة نوعان : هجرة بالحسم وهجرة بالقلب
 ١٧ معنى قوله ﷺ : «أعوذ بك منك»
 ٦١ شرح حديث : «مثل ما بعثني الله به من الهدى . .»

* اللغة والنحو

- ٥ معنى البر والتقوى والفرق بينهما
 ١٠ اشتقاق التقوى
 ١٣ الفرق بين الإثم والعدوان
 ٣٨ معنى «اللي»
 ٤٥ معنى «أولي الأمر»
 ٨٢ الفرق بين الإسلام والإيمان
 ٢٨ سبب تصدير القسم بلا النافية
 ٧٣ سبب تصدير الكلام بصيغة الاستفهام
 ٤٣ السر في إعادة الفعل في قوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾
 الخلاف بين المحويين في تقدير المحذوف في قوله تعالى :
 ٣٧ ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ أَنْ تَعْدِلُوا﴾

فوائد متفرقة

- ٣ مطلع القصيدة الميمية للمؤلف
- ٨١ وعد المؤلف بتأليف كتاب في أدلة القرآن
- ٩٣ رسالة للمؤلف في شرح بيت
- ١٢ أمثلة من الأسماء التي علق الله بها الأحكام
- ٤٦ وحبوب رد موارد النزاع إلى الله والرسول
- ٧٩ «العليم الحكيم» متضمنان لجميع صفات الكمال

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

٥	• • • • •	* مقدمة التحقيق
٥	• • • • •	استعراض مباحث هذه الرسالة
٦	• • • • •	طبعتها
٧	• • • • •	الأصول المعتمدة في هذه الطبعة
٩	• • • • •	منهج التحقيق
١١	• • • • •	بماذج من النسخ الحطية
		* النص المحقق
٣	• • • • •	مقدمة المؤلف
		تفسير قوله تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
٤	• • • • •	وَالْمُدُونِ ﴾
		بيان أن هذه الآية اشتملت على جميع مصالح العباد في
٤	• • • • •	معاشهم ومعادهم
٥	• • • • •	البرّ والتقوى جماع الدين كله
٥	• • • • •	حقيقة «البرّ» واشتقاق هذه المادة وتصاريفها
٧	• • • • •	خصال البرّ كما ذكرت في سورة البقرة
٧	• • • • •	البرّ يشمل أصول الإيمان والشرائع الطاهرة والأعمال القلبية

- ٨ حقيقة «التقوى» وخصالها
- ٨ قول طلق بن حبيب في حدّها
- ٩ سبب اقتران الإيمان للاحتساب
- ١٠ الفرق بين الر والتقوى عند اقتران أحدهما بالآخر
- ١١ العلم محدود ما أنزل الله هو العلم النافع
- ١١ عدم العلم بها يؤدي إلى مفسدتين
- ١٢ أمثلة من الأسماء التي علّق الله بها الأحكام
- ١٢ عودة إلى تفسير الآية
- ١٣ الفرق بين «الإثم» و«العدوان»
- ١٤ واجب العبد بينه وبين الخلق، وواجبه بينه وبين الله
- ١٤ كيف يتم أداء هذين الواجبين
- ١٥ المقصود الأهم هو الهجرة إلى الله ورسوله
- ١٦ الهجرة نوعان: هجرة بالجسم وهجرة بالقلب
- ١٦ مبدأ الهجرة بالقلب ومتهاها
- ١٦ معنى الفرار من الله إليه
- ١٧ معنى قوله ﷺ «وأعوذ بك منك»
- ١٧ قوله ﷺ: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»

- المقصود من الهجرة ١٩
- على العبد في كل وقت أن يهاجر إلى الله ٢٠
- سبب قوة هذه الهجرة وضعفها ٢٠
- الهجرة إلى الرسول ﷺ وغربة السالكين في طريقها ٢١
- حدّ هذه الهجرة وبيان أنها مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله ٢٣
- المطلوب تحكيم الرسول ﷺ في جميع موارد النزاع وانشراح
الصدر بحكمه ٢٥
- كيف يختبر العبد حاله في هذا الأمر ٢٦
- الفرق بين علم الحب وحال الحب ٢٨
- ذكر وجوه لتأكيد في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُ حَقٌّ
يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ ٢٨
- الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ٣١
- الأولوية تتضمن عدة أمور ٣١
- ادعاء هذه الأولوية والمحبة ممن سعيه واحتشاده في الاشتغال
بأقوال غير الرسول وتقريرها ٣٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ
لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ ٣٣

- معنى اقيام بالقسط أو العدل ٣٤
- معنى الشهادة لله ٣٤
- الليّ والإعراض المنهيّ عنهما في الآية ٣٨
- الليّ هو التحريف، وقد يكون في اللفظ وقد يكون في المعنى ٣٨
- وجوب اتساع الصوص وإطهارها ودعوة الخلق إليها ٣٩
- الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِذَا تَوَلَّوْا
- فَأَمْرٌ عَلَيْهِ مَا جُمِلَ وَعَلَيْكُمْ مَا جُمِلَتْهُ﴾ ٤٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ مَسُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
- الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ٤٢
- سبب المخطأب في القرآن بقوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ مَسُوا﴾ ٤٣
- النسب في تكرار الفعل في ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ والجمع بين
- الرسول وأولي الأمر تحت فعل واحد ٤٣
- معنى الردّ إلى الله والرسول ٤٤، ٤٧
- معنى أولي الأمر ٤٥
- وجوب ردّ موارد النزاع إلى الله ورسوله ٤٦
- حكم تحكيم غير الله والرسول ٤٧
- كل شرّ في الدنيا والآخرة سببه مخالفة الرسول، وكل خير
- فيهما سببه طاعة الرسول ٤٨

- سعادة العبد في معرفة ما جاء به الرسول علماً والقيام به عملاً . ٤٩
 كمال هذه السعادة دعوة الخلق إليه وصبره وجهاده على تلك
 الدعوة ٤٩
 مراتب الكمال الإنساني الأربع ٤٩
 ضلال من يزعم أن الهداية لا تحصل بالوحي ٥٠
 كل من لم يتبع الوحي فإنما اتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله ٥١
 تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ ٥٣
 حكم الأتباع الأشقياء ٥٦
 قطع جميع الأسباب يوم القيامة إلا السبب الواصل بين العبد
 وبين ربه ٥٧
 حكم الأتباع السعداء وبيان أنهم نوعان ٥٩
 أقسام الخلائق في الدعوة والاستجابة ٦١
 شرح حديث « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل
 غيث ... » ٦١
 تشبيه القلوب بالأرضين الثلاثة ٦٢
 النوع الثاني من الأتباع السعداء ٦٥
 من أعظم التعاون على البر والتقوى : التعاون على سفر
 الهجرة إلى الله ورسوله ٦٧

- ٦٧ زاد هذا السفر العلمُ الموروث عن خاتم الأنبياء ﷺ
- ٦٨ طريقُ هذا السفر بذلُ الجهد واستفراغ الوسع
- عليه أن لا يصبو في الحق إلى لومة لائم، وأن تهون عليه نفسه
- ٦٩ في الله، وأن يتحلَّى بالصبر
- ٦٩ مَرَكَبُ هذا السفر: صِدْقُ اللجأ إلى الله والانقطاع إليه بالكلية
- رأس مال الأمر وعموده في ذلك: دوامُ التفكير والتدبر
- ٧٠ في آيات القرآن
- ٧١ نموذج من تدبُّر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه
- ٧١ تفسير قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴾
- ٧٢ ذكر بعض ما في هذه الآيات من الأسرار
- ٧٣ السرّ في افتتاح القصة بصيغة الاستفهام
- ٧٥ معنى «المكرمين»
- ٧٥ الكلام على قوله ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾
- ٧٦ ذكر أنواع من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيافة في الآيات
- إثبات العلم والحكمة لله وبيان أنهما متضمنان لجميع
- ٧٩ صفات الكمال
- ٨١ طريقة القرآن في إثبات المعاد، وعزم المؤلف على التأليف فيها

- ٨٢ سرّ الفرق بين الإسلام والإيمان في الآيتين
- الانتفاع بآيات الله وعجائبه لمن يؤمن بالمعاد ويخشى
- ٨٤ عذاب الله
- ٨٤ طلب الرفيق لسفر الهجرة، ومواصلة السير ولو وحيداً غريباً
- ٨٥ الغرض من تأليف هذه الرسالة وبيان أهميتها
- من أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات، ويحذر من مرافقة
- ٨٦ الأحياء
- ٨٧ علاقة هذا المسافر بعامة الناس، وواجبه نحوهم
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ خُذِ الصُّلَّةَ وَأَمْرًا بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
- ٨٨ الْجَنَاحِ الْيَمِينِ ﴾
- ٨٨ بيان أهمية هذه الخصال الثلاث
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي
- ٨٩ الْأَمْرِ ﴾
- لا تتم هذه الخصال إلا بثلاثة أشياء: أن يكون العود طيباً،
- ٩٠ وأن تكون النفس قوية، وعلمٌ شافٍ بحقائق الأشياء
- ٩١ خاتمة الرسالة
- ٩١ أول الأمر وآخره: معاملة الله وحده والانقطاع إليه بكلية القلب

- ٩٢ ثلاث كلمات كان يكتب بها بعض السلف إلى بعض
- ٩٣ إشارة المؤلف إلى تأليف له في شرح معنى بيت
- ٩٥ * الفهارس

* * *